الفرقان

بين الحق والباطل

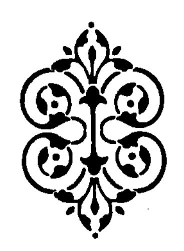
للإمام
شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية
٦٦١ - ٧٢٨ هـ

تحقيق :
فضيلة الشيخ خليل الميس
مدير أزهر لبنان



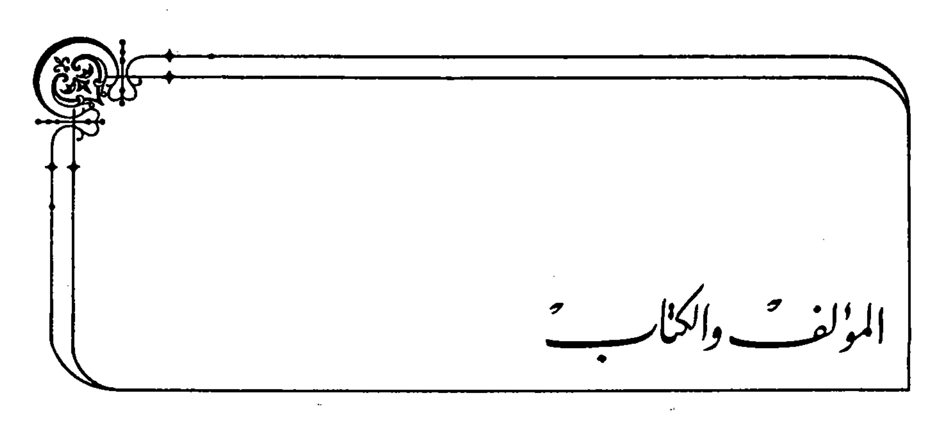
ص . ب : ٣٨٧٤
بيروت - لبنان





الفُرْقَان

بين الحق والباطل



المؤلف والكتاب

التعريف بالمؤلف : هو شيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيميه الحراني الدمشقي ، الحنبلي ، تقي الدين أبو العباس .

ليس كابن تيميه رجل ملأ سمع الزمان وأغنى التاريخ بعده فهو الغائب الحاضر فيه تخاصم الرجال ولا يزالون . . ومن حيث أقبلت عليه تراه جبلاً شامخاً ففي الفقه هو المجدد ، وفي البطولة هو القائد ، وفي السياسة هو المنظر وفي الحق هو الرائد ، وفي علوم الاسلام هو المشارك . . وإذا تصفحت أسماء كتبه قلت متى جاهد ، وإن قرأت تاريخ جهاده قلت متى صنف وإذا سمعت مقالة حساده قلت ماذا بقي له . . وإذا قرأت كتبه قلت من بقي منهم . . . كان الناس ولا يزالون فيه مختلفين . . . والمباحث والرسائل العلمية تدبج في العلوم التي صنف فيها . . ولئن قال الإمام أحمد في خصومه بيننا وبينكم الجنائز فكأنني بابن تيميه يقول لمناوئيه بيننا وبينكم التاريخ . . والسنة الخلق أقلام الحق . .

ولنعدد ألقابه العلمية قالوا فيه : هو العلامة ، الحافظ ، المجتهد ، الحجة ، المفسر ، الإمام الرباني ، مفتي الأمة ، بحر العلوم ، فارس المعاني والألفاظ ، فريد العصر ، قريع الدهر ، شيخ الاسلام ، قدوة الأنام ، علامة الزمان ، ترجمة القرآن ، علم الزهاد ، أوحد العباد ، قامع المبتدعين . .

قال الذهبي في معجم شيوخه : سمع الحديث وأكثر بنفسه من طلبه ، وكتب وخرج ونظر في الرجال والطبقات ، وحصَّل ما لم يحصله غيره .

برع في تفسير القرآن ، وغاص في دقيق معانيه ، بطبع سيَّال ، وخاطر وقَّاد وإلى مواضع الأشكال ميَّال ، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها .

وبرع في الحديث وحفظه . . . وفاق الناس في معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوي الصحابة والتابعين . . . واتقن العربية أصولاً وفروعاً وتعليلاً واختلافاً . .

نظر في العقليات ، وعرف أقوال المتكلمين وردَّ عليهم . . . ونصر السنة بأوضح حجج ، وأبهر البراهين ، وأوذي في ذات الله من المخالفين . . وأحيا به الشام بل الاسلام بعد أن كاد ينثلم خصوصاً في كائنة التتار وقيل فيه : كان إذا سئل عن فن من العلم ظنَّ الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله .

وأما شجاعته فيها تضرب الأمثال ، فلقد أقامه الله تعالى في نوبة غازان فكان ليث حرب .

أما محنه فكثيرة . . حبس بقلعة دمشق سنتين وأشهر . . وكانت جنته في قلبه وبستانه في صدره . . فكان السجن له نعمة .

وأما تصانيفه فهي أشهر من أن تذكر ، وأعرف من أن تنكر . . جاوزت حدَّ الكثرة فلا يمكن أحد حصرها . . وطبع منها عشرات المجلدات . . وهذا الكتاب واحد منها .

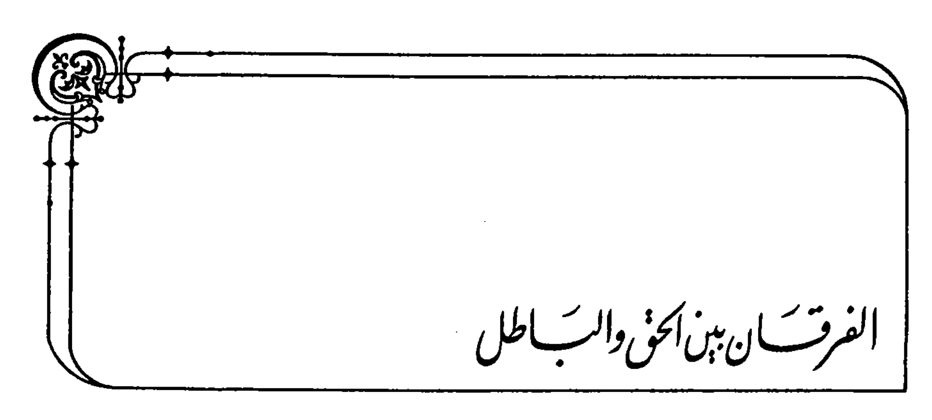
وفاته : كانت وفاته رحمه الله في سحر ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة وكان يقرأ القرآن . . وقد بلغ قوله تعالى : ﴿ **إنَّ المتقين في جنات وَنَهَرْ في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مَليكٍ مقتدر** ﴾ القمر ٥٤ ـ ٥٥ .

وكان يوم وفاته مشهوداً . . وشيعه الرجال والنساء . . . أما الرجال فحرزوا بستين ألفاً إلى مائة ألف . . إلى مائتي ألف . . أما النساء حرزن بخمسة عشر ألف امرأة غير اللائي كنَّ على الأسطحة وغيرهن . .

وشـرب جماعـة الماء الـذي فضـل عن غسله ، واقتسم جمـاعـة بقيـة السـدر الذي غسل فيه . .

وحصـل في الجنازة ضجيـج وبكاء كثـير وتضرع وختمت لـه ختمـات كثيـرة وتردد الناس إلى قبره أياماً كثيرة ليـلاً ونهاراً ، ورؤيت له منـامات صِـالحة كثيـرة ، ورثاه جماعة مَّة. وقد صلي عليه صلاة الغائب في غالب بلاد الإسلام حتى في اليمن والصين. . ودفن بمقبرة الصوفية . . رحمه اللّه وجعل الجنة مثواه.





الفرقان بين الحق والباطل

يعرف فيقول: إن اللَّه بين ذلك في كتابه ونبيه ـ أي بين الفرق بين الحق والباطل ـ فمن كان أعظم إتباعاً لكتابه الذي أنزله ، ونبيه الذي أرسله ـ كان أعظم فرقاناً ـ .

ومن كان أبعد عن أتباع الكتاب والرسول ـ كان أبعد عن الفرقان ، واشتبه عليه الحق بالباطل . . وإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . . ففرق بين الحق والباطل . . وطريق أولياء الله السعداء ، وأعداء الله الأشقياء .

أما الفرقان فهو القرآن الكريم . . وساق الآيات الدالة على ذلك لما أنزل الله تعالى الإيمان في القلوب ، وأنزل الميزان ، والإيمان .

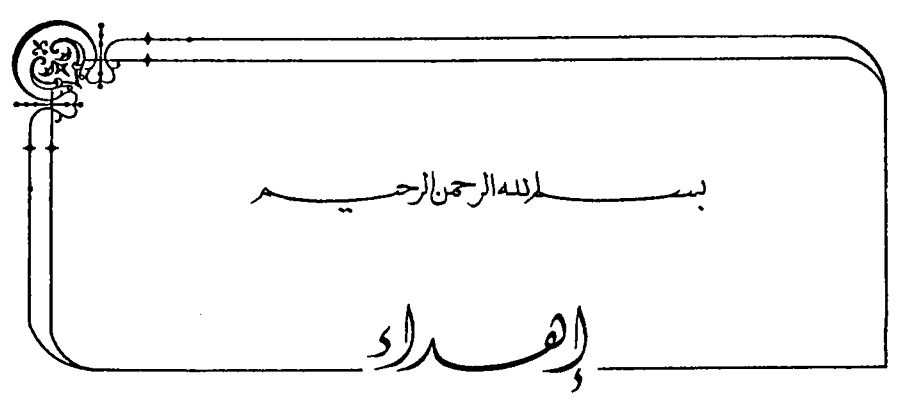
والميزان : مما يحصل به الفرقان أيضاً كما يحصل بالقرآن ، وإذا أنزل القرآن حصل به الإيمان والفرقان .

ومن الفرقان : أنه فرَّق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين ـ وبين أهل الباطل الكفار والضالّين المفسدين أهل السيآت .

وإن سنة الله تعالى لن تبدل ولن تتحول . . وسنته عادته أن يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي . . وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة .

ثم تكلم عن عقائد السلف واعتصامهم بالكتاب والسنة ، ثم وصل الكلام إلى أهل البدع . . كالخوارج وسوء فهمهم للقرآن الكريم . . وتكفيرهم أرباب الذنوب . . والفِرَقْ التي حدثت بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه . . ثم الرافضة . . والقدرية . . والمعتزلة ـ والمرجئة ـ والجهمية وأصحاب الحلاج . . كما تكلم عن اليهود والنصارى وعقائدهم ليصل الكلام إلى جماع الفرقان بين الحق والباطل . . . أن يجعل ما بعث به الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان ـ وما سواه من كلام الناس يعرض عليه فإن وافقه فهو حق ، وإن خالفه فهو باطل . . والعلم ما قام عليه الدليل . . والنافع منه ما جاء به الرسول . . ثم عرض لأقسام العلوم . . . ليصل الحديث إلى علم الكلام ومناهج الفلاسفة . . ويعود في آخر الكتاب ليبسط شبه الفرق التي نجمت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ويرد عليها . . . بأسلوبه المتميز حيث الاستدلال بالكتاب والسنة . . ويهدم قول المبطلين ويكشف زيف الملحدين ، فرحمه الله وجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء .

الشيخ خليل الميس
مدير أزهر لبنان



إلى طوائف وفرق هذه الأمة .

إلى إخواننا السلفيين الكرام . يتعلمون من إمامهم .

إلى طلاب العلم من الإخوة المسلمين ليعرفوا الحق من الباطل .

إلى جماعات الدعوة . . ليتبين لهم الفرقان بين الحق والباطل .

إلى الفرق الصوفية . . الذين ضلوا وأضلوا .

إلى الخوارج ومن تبعهم من جماعات التكفير .

إلى المعتزلة ومن تبعهم من العقلانيين .

إلى الأشاعرة ومن تبعهم من الأزهريين .

إلى الشيعة ومن تبعهم من القرآنيين .

إلى الباطنية ومن تبعهم من البهائيين .

إلى المرجئة ومن تبعهم من أهل الهوى .

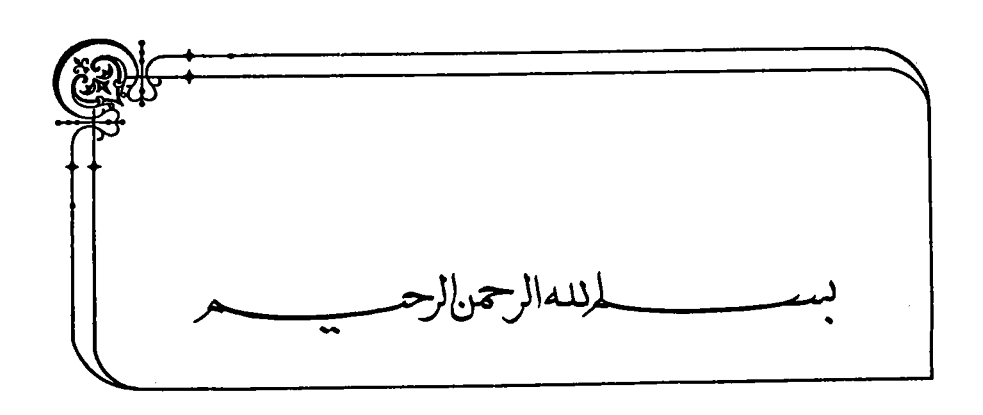
إلى الجهمية ومن تبعهم من الزنادقة والملحدين .

أهدي هذا الكتاب :

الفرقان بين الحق والباطل

للإمام ابن تيمية

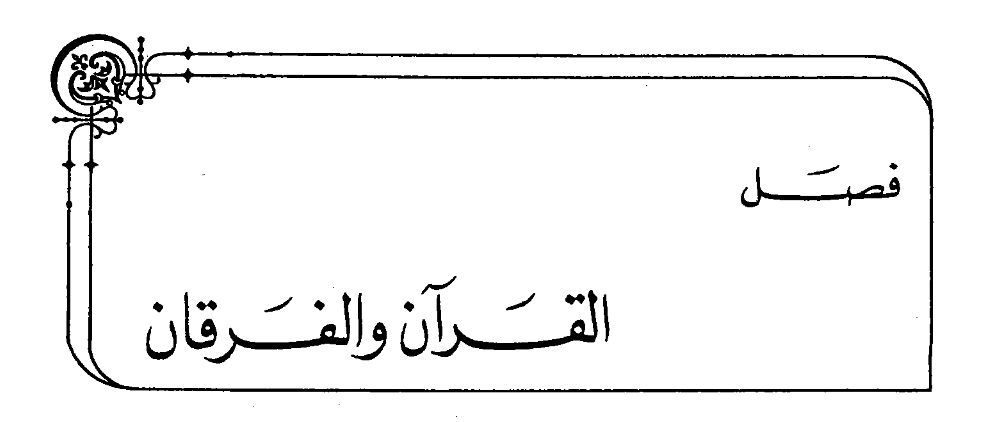




الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بـالله من شرور أنفسنـا ومن سيآت أعمالنا ، من يهد الله فهـو المهتد ، ومن يضلل فـلا هادي لـه ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شـريك لـه ، وأشهد أن محمـداً عبده ورسـولـه صـلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

قـال الإمام أبـو العباس أحمـد بن عبد الحليم بن تيميـة رحمه الله ، وهـو مما صنفه بقلعة دمشق أخيراً .





فصل

القرآن والفرقان

في الفرقان بين الحق والباطل ؛ وأن الله بين ذلك بكتابه ونبيه ، فمن كان أعظم اتباعاً لكتابه الذي أنزله ، ونبيه الذي أرسله ، كان أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعد عن إتباع الكتاب والرسول ، كان أبعد عن الفرقان واشتبه عليه الحق بالباطل ، كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان ، وللنبي الصادق بالمتنبي الكاذب ، وآيات النبيين بشبهات الكذابين حتى اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ففرق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغيّ ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ، والمعروف والمنكر ، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء ، وبين ما عليه الناس من الاختلاف ، وكذلك النبيون قبله . قال الله تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ **تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب**

---

(١) سورة البقرة ٢١٣ .

إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[١]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾**[٢]. وقال تعالى: ﴿ **آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس وأنزل الفرقان﴾**[٣].

قال جماهير المفسرين : هو القرآن . روى ابن أبي حاتم بإسناده عن الربيع ابن أنس قال : هو الفرقان فرق بين الحق والباطل . قال : وروى عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك ، وروى بإسناده عن شيبان عن قتادة في قوله : وأنزل الفرقان . قال هو القرآن الذي أنزله الله على محمد ففرق به بين الحق والباطل ، وبيّن فيه دينه وشرع فيه شرائعه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحدَّ حدوده وأمر بطاعته ونهى عن معصيته .

وعن عباد بن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى : ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾ . قال : هو كتاب بحق . والفرقان مصدر فرق فرقاناً ، مثل الرجحان والكفران والخسران . وكذلك القرآن هو في الأصل مصدر قرأ قرآناً ومنه قوله : ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾**[٤]. ويسمى الكلام المقروء نفسه قرآناً وهو كثير كما في قوله : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾**[٥] كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تكليماً ، وتكلم تكلماً ، ويراد به الكلام نفسه وذلك لأن الإنسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه وحركة هي مسمى المصدر ، وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفس للتكلم . فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ، ولهذا كان الكلام تارة

---

(١) سورة النحل ٦٣ .
(٢) سورة الفرقان ١ .
(٣) سورة آل عمران ١ ـ ٤ .
(٤) سورة القيامة ١٧ ـ ١٩ .
(٥) سورة النحل ٩٨ .

يجعل نوعاً من العمل إذا أريد به المصدر ، وتارة يجعل قسماً له إذا أريد ما يتكلم به وهو يتناول هذا وهذا ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن لفظ الفرقان إذا أريد به المصدر ، كان المراد أنه أنزل للفصل والفرق بين الحق والباطل ، وهذا منزل في الكتاب فإن في الكتاب الفصل وإنزال الفرق هو إنزال الفارق ، وإن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً فهما في المعنى سواء ، وإن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كإنزال الإيمان وإنزال العدل ، فإنه جعل في القلوب للتفريق بين الحق والباطل بالقرآن ، كما جعل فيها الإيمان والعدل وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان ، والميزان قد فسر بالعدل ، وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل ، وهو كالفرقان يفسر بالفرق ويفسر بما يحصل به الفرق وهما متلازمان ، فإذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه ، وإذا أريد الفارق ، فالكتاب نفسه هو الفارق ، ويكون له إسمان كل إسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى ، سمي كتاباً باعتبار أنه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب ، وسمي فرقاناً باعتباره أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم ، كما سمي هدى باعتباره أنه يهدي إلى الحق ، وشفاء باعتباره أنه يسفي القلوب من مرض الشبهات والشهوات ، ونحو ذلك من أسمائه .

وكذلك أسماء الرسول كالمقتفي والماحي والحاشر ، وكذلك أسماء الله الحسنى كالرحمن والرحيم والملك والحكيم ونحو ذلك ، والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات ، وإن كان المسمى واحداً كقوله : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوّى والذي قدَّر فهدى** ﴾[1] وقوله : ﴿ **وهو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾[2] ونحو ذلك . وهنا ذكر نزول الكتاب فإنه نزل متفرقاً ، وأنه أنزل التوراة والإنجيل ، وذكر أنه أنزل للفرقان .

---

(١) سورة الأعلى ١ ـ ٣.   (٢) سورة الحديد ٢ .

وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان في القلوب وأنـزل الميزان ، والإيمـان والميزان مما يحصل به الفرقان أيضاً كما يحصل بالقرآن ، وإذا أنزل القرآن حصـل به الإيمـان والفرقان ونظير هذا قوله : ﴿ **ولقـد آتينا مـوسى وهرون الفرقان وضياء وذكراً** ﴾(١). قيل : الفرقان هو التـوراة ، وقيل : هـو الحكم بنصره عـلى فرعـون كما في قـوله : ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان** ﴾(٢).

وكذلك قوله : ﴿ **وقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾(٣)قيل : النـور هو محمد عليه الصلاة والسلام . وقيـل : هو الإسـلام وقولـه : ﴿ **قد جـاءكم برهـان من ربكم وأنـزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾(٤)قيـل : البـرهـان هـو محمـد . وقيـل : هـو الحجـة والدليـل ، وقيل : القـرآن والحجة والـدليل يتنـاول الآيـات التي بعث بهـا محمد ﷺ ، لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم ، وهنـا قال : وأنـزل الفرقـان جاء بلفظ الإنـزال ، فلهذا شـاع بينهم أن القرآن والفـرقان يحصـل بالعلم والبيـان كـما حصل بالقرآن ، ويحصل بالنظر والتمييـز بين أهـل الحق والباطـل بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ، ويعذب هؤلاء ، فيكون قد فـرق بين الـطائفتين كـما يفرق المفـرق بين أولياء الله وأعدائه بالإحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء ، وهذا كقـوله في القـرآن في قـوله : ﴿ **إن كنتم آمنتم بـالله وما أنـزلنا عـلى عبـدنـا يـوم الفـرقـان يـوم التقى الجمعان والله على كل شيء قديـر** ﴾(٥).

قال الوالبي عن ابن عباس يوم الفـرقان : يـوم بدر فـرق الله فيه بـين الحق والبـاطل . قـال ابن أبي حاتم : وروى عن مجـاهد ومقسم وعبـد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقـاتل بن حيـان نحو ذلـك . وبذلـك فسر أكثرهم : إن تتقـوا الله يجعل لكم فرقاناً . كما في قولـه : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾(٦)أي من كل ما ضاق على الناس .

---

(١) سورة الأنبياء ٤٨ .
(٢) سورة الأنفال ٤١ .
(٣) سورة المائدة ١٥ .
(٤) سورة النساء ١٨٤ .
(٥) سورة الأنفال ٤١ .
(٦) سورة الطلاق ٢ .

قال الوالبي عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً** ﴾[1] أي مخرجاً . قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان كذلك ، غير أن مجاهداً قال : مخرجاً في الدنيا والآخرة . وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال : نصراً . قال وفي آخر قول ابن عباس والسدي : نجاة .

وعن عروة بن الزبير : يجعل لكم فرقاناً . أي فصلاً بين الحق والباطل ، يظهر الله به حقكم ويطفىء به باطل من خالفكم .

وذكر البغوي عن مقاتل به حيان قال : مخرجاً في الدنيا من الشبهات ، لكن قد يكون هذا تفسيراً لمراد مقاتل بن حيان كما ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن الن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن قتيبة أنهم قالوا : هو المخرج . ثم قال : والمعنى يجعل لكم مخرجاً في الدنيا من الضلال وليس مرادهم ، وإنما مرادهم المخرج المذكور في قوله : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾[2] والفرقان المذكور في قوله : ﴿ **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان** ﴾[3].

وقد ذكر عن ابن زيد أنه قال هدى في قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل ، ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان وهو النصر والنجاة هو نوعا الظهور في قوله تعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ﴾[4] يظهره بالبيان والحجة والبرهان ، ويظهر باليد والع والسنان .

وكذلك السلطان في قوله : ﴿ **واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾[5] فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما في قوله : ﴿ **أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون** ﴾[6] وقوله : ﴿ **الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم**

---

(١) سورة الأنفال ٢٩ .
(٢) سورة الطلاق ٢ .
(٣) سورة الأنفال ٤١ .
(٤) سورة الفتح ٢٨ .
(٥) سورة الإسراء ٨٠ .
(٦) سورة الروم ٣٥ .

إن في صدورهم إلا كبر﴾[1] وقوله : ﴿ **إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾[2] .

وقد فسر السلطان بسلطان القدرة واليد ، وفسر بالحجة والبيان ، فمن الفرقان ما نعته الله به في قوله : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾[3] ففرق بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا ونهى عن هذا ، وبين الطيب والخبيث ، أحلَّ هذا وحرَّم هذا .

ومن الفرقان: أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل الحسنات وبين أهل الباطل الكفار والضالين المفسدين أهل السيآت . قال تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحين كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون** ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿**مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون**﴾[7] .

وقال تعالى : ﴿ **أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمه ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾[8].

---

(١)
(٢) سورة النجم ٢٣ .
(٣) سورة الأعراف ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٤) سورة الجاثية ٢٣ .
(٥) سورة ص ٢٨ .
(٦) سورة القلم ٣٥ .
(٧) سورة هود ٢٤ .
(٨) سورة الزمر ٩ .

وقال تعالى : ﴿ **وما يستوي الأعمى ولا البصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً أو نذيراً** ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون** ﴾[3] فهو سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول والمعصية لله والرسول كما بين الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه .

وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق لا يجوز أن يسوي بين الخالق والمخلوق في شيء فيجعل المخلوق نداً للخالق ، قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **هل تعلم له سمياً** ﴾[5] . ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾[6] . ﴿ **ليس كمثله شي** ﴾[7] وضرب الأمثال في القرآن على من لم يفرق بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه كما قالوا وهم في النار يصطرخون فيها : ﴿ **تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين** ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾[9].

فهو سبحانه الخالق العليم الحق الحي الذي لا يموت ، ومن سواه لا يخلق

---

(١) سورة فاطر ١٩ ـ ٢٤ .
(٢) سورة الانعام ١٢٢ .
(٣) سورة السجدة ١٨ .
(٤) سورة البقرة ١٦٥ .
(٥) سورة مريم ٦٥ .
(٦) سورة الإخلاص ٤ .
(٧) سورة الشورى ١١ .
(٨) سورة الشعراء ٩٧ ـ ٩٨ .
(٩) سورة النحل .

شيئاً كما قال : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره** ﴾[1] .

وهذا مثل ضربه الله ، فإن الذباب من أصغر الموجودات وكل من يدعي من دون الله لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فإذا تبين أنهم لا يخلقون ذباباً ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم ، فهم عن خلق غيره وعن مغالبته أعجز وأعجز .

والمثل هو الأصل والنظير المشبه به كما قال : ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون** ﴾[2] أي لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آلهتهم وقالوا إذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آلهتنا ، فضربوه مثلاً لآهلهتهم وجهلوه يصدون ، أي يضجون ويعجبون منه احتجاجاً به على الرسول ، والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر كما بينه في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾[3] وقال في فرعون : ﴿ **وجعلناه سلفاً ومثلاً للآخرين** ﴾[4] أي مثلاً يعتبر به ويقاس عليه غيره ، فمن عمل بمثل عمله جوزي بجزائه ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله وقال تعالى : ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم** ﴾[5] وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية التي يعتبر بها ويقا عليها أحوال الأمم المستقبلة كما قال : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾[6] فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم وعلم أن الله يشقيه في الدنيا والآخرة كما قال في حق هؤلاء : ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر** ﴾[7] وقد قال : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[8] وقال في حق المؤمنين : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا**

---

(١) سورة الحج ٧٣ ـ ٧٤ .
(٢) سورة الزخرف ٥٧ .
(٣) سورة الانبياء ١٠١ .
(٤) سورة الزخرف ٥٦ .
(٥) سورة النور ٣٤ .
(٦) سورة يوسف ١١ .
(٧) سورة القمر ٤٣ .
(٨) سورة آل عمران ١٣٧ .

الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾[1] وقال: ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنَّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾**[2] وقال في قصة أيوب: ﴿ **رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ـ رحمة منا وذكرى لأولي الألباب﴾**[3] وقال : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾**[4] وقال : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراءة وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾**[5] وقال :﴿ **وكلا نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾**[6] فلفظ المثل يراد به النظير الذي يقاس عليه ويعتبر به ويراد به مجموع القياس . قال سبحانه : ﴿ **وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾**[7] أي لا أحد يحييها وهي رميم . فمثل الخالق بالمخلوق في هذا النفي ، فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على إحيائها سواء نظمه قياس تمثيل أو قياس شمول . كما قد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن معنى القياسين قياس بالشمول وقياس بالتمثيل ، وأن المثل المضروب المذكور في القرآن ، فإذا قلت : النبيذ مسكر وكل مسكر حرام ، وأقمت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله ﷺ : « كل مسكر حرام » فهو كقوله ﷺ قياساً على الخمر لأن الخمر إنما حرمت لأجل الإسكار وهو موجود في النبيذ فقوله : ﴿**ضرب مثل فاستمعوا له﴾**[8] جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلاً ونظيراً يعتبر به ، فإذا كان أدون خلق الله لا يقدرون على خلقه ولا منازعته فلا يقدرون على خلق ما سواه فيعلم بها من عظمة الخالق ، وإن كل ما يعبدون من دون الله في السماء والأرض لا يقدرون على ما هو أصغر مخلوقاته وقد قيل إنهم جعلوا آلهتهم مثلاً

---

(١) سورة النور ٥٥ .
(٢) سورة الإنبياء ٨٧ ـ ٨٨ .
(٣) سورة ص ٤٣ .
(٤) سورة الأنعام ٩٠ .
(٥) سورة البقرة ٢١٤ .
(٦) سورة هود ١٢٠ .
(٧) سورة يس ٧٨ .
(٨) سورة الحج ٧٣ .

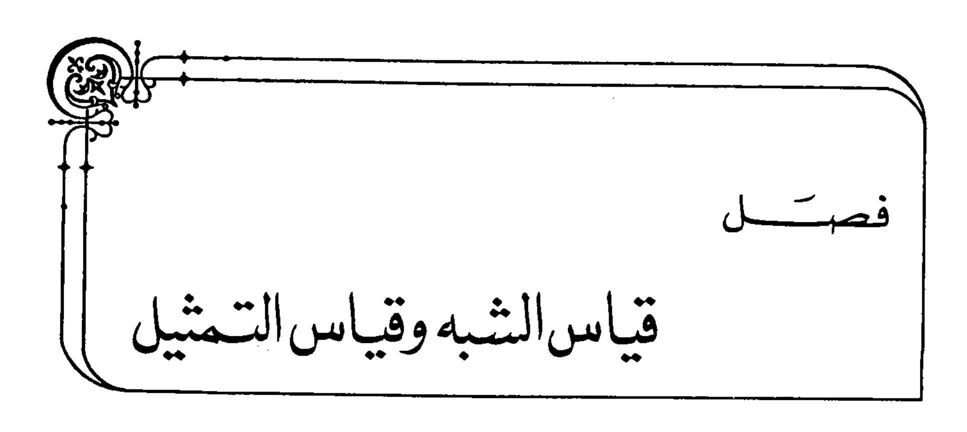
لله فاستمعوا لذكرها وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذي ضربه الله ، جعلوا المشركين هم الذين ضربوا هذا المثل ، ومثل هذا في القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق ، ويجعل له نداً ومثلاً كقوله : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون . كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون . قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يُهدى فمالكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ﴾[1].

ولما قرر الوحدانية قرر النبوة كذلك فقال : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[2] وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق وهذا من تكذيبهم إياه، ولم يكن المشركون يسوون بين آلهتهم وبين الله في كل شيء بل كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق المالك لهم وهم مخلوقون مملوكون له ، ولكن كانو يسوون بينه وبينها في المحبة والتعظيم والدعاء والعبادة والنذر لها ونحو ذلك مما يخض به الرب، فمن عدل بالله وغيره في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك بخلاف من لا يعدل به ولكن يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده وخضوعه له خوفاً من عقوبة الذنب ، فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك .

---

(١) سورة يونس ٣١ ـ ٣٦.

(٢) سورة يونس ٣٧ ـ ٣٩.



فصل

قياس الشبه وقياس التمثيل

وهو سبحانه وتعالى كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة فيحكم في الشيء خلقاً وأمراً بحكم مثله لا يفرق بين متماثلين ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين ، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسوِّ بينهما .

ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض ، لا يراد به مجرد عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[1] وقوله : ﴿ **إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك** ﴾[2]. وقوله : ﴿ **ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر** ﴾[3].

وقد بيَّن سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع . والسنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول . ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار ، وقال : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب** ﴾ .

والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله ، فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان فإذاً قال ﴿ **فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ وقال : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب** ﴾[4] أفاد أن من عمل مثل أعمالهم

---

(١) سورة النساء ٨٢.
(٢) سورة الذاريات ٨ ، ٩.
(٣) سورة البقرة ٣.
(٤) سورة يوسف ١١١ .

جوزي مثل جزائهم ، ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار ، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين إتباع الأنبياء قال تعالى : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً** ﴾[2]وقال تعالى : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾[3] وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب وظهور الإسلام وذل المنافقين ، فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونه قبل ذلك قبل بدر وبعدها ، وقبل أُحد وبعدها فأخفوا النفاق وكتموه ، فلهذا لم يقتلهم النبي ﷺ .

وبهذا يجيب من لم يقتل الزنادقة ويقول إذا أخفوا زندقتهم لم يمكن قتلهم ، ولكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية بقوله : ﴿ **ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾[4].

قال قتادة : ذكر لنا المنافقين كانوا يظهرون ما في أنفسهم من النفاق فأوعدهم الله بهذه الآية . فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكتموه سنة الله الذين خلوا من قبل يقول هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق ، قال مقاتل بن حيان قوله : ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل** ﴾[5]يعني كما قتل أهل بدر وأسروا فذلك قوله : ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل** ﴾ .

النفاق على ثلاثة أوجه

قال السدي : كان النفاق على ثلاثة أوجه نفاق مثل نفاق عبد الله بن أبي

---

(١) سورة آل عمران ١٣٧ .
(٢) سورة الإسراء ٧٦ - ٧٧ .
(٣) سورة الأحزاب ٦٠ - ٦٢ .
(٤) سورة الأحزاب ٦١ - ٦٢
(٥) سورة الأحزاب ٦٢ .

وعبد الله بن نفيل ومالك بن داعس فكان هؤلاء وجوهاً من وجوه الأنصار ، فكانوا يستحبون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم والذين في قلوبهم مرض ، قال الزناة إن وجدوه عملوا به وإن لم يجدوه لم يتبعوه ، ونفاق يكابرون النساء مكابرة ، وهم هؤلاء الذين يجلسون على الطريق ثم قال ملعونين ، ثم فصلت الآية ﴿أينما ثقفوا﴾ يعملون هذا العمل مكابرة النساء .

قال السدي : هذا حكم في القرآن ليس يعمل به لو أن رجلاً أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا بها ، كان الحكم فيهم غير الجلد ، والرجم أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم .

قال السدي : قوله (سُنَّةَ)، كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم قال : فمن كابر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر .

قلت هذا على وجهين : أحدهما : أن يقتل دفعاً لصوله عنها مثل أن يقهرها فهذا دخل في قوله : من قتل دون حرمته فهو شهيد . وهذه لها أن تدفعه بالقتل لكن إذا طاوعت ففيه نزاع وتفصيل . وفيه قضيتان عن عمر وعليّ معروفتان ، وأما إذا فجر بها مستكرها ، ولم تجد من يعينها عليه فهؤلاء نوعان أحدهما : أن يكون له شوكة كالمحاربين لأخذ المال وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا .

قال السُّدِّي : قد قاله غيره وذكر أبو اللوبي أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق بأن يكونوا محاربين . والثاني : أن لا يكونوا ذوي شوكة ، بل يفعلون ذلك غيلة واحتيالاً ، حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها ، فهذا المحارب غيلة ، كما قال السدي : يقتل أيضاً وإن كانوا جماعة في المصر فهم كالمحاربين في المصر ، وهذه المسائل لها مواضع أخر .

سنة الله في خلقه

والمقصود أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول ، وسنته عادته التي

يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي ، وهذا يقتضي أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة ، ولهذا قال : ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم** ﴾[1] وقال : ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾[2] أي أشباههم ونظراءهم وقال : ﴿ **وإذا النفوس زوجت** ﴾[3] قرن النظير بنظيره ، وقال تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم** ﴾[4] وقال : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا** ﴾[5] وقال : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾[6].

فجعل التابعين لهم بإحسان ؛ مشاركين لهم فيها ذكر من الرضوان والجنة وقد قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾[7] وقال تعالى . ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم** ﴾[9] فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم وهم خير الناس بعد الأنبياء ، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس وأولئك خير أمة محمد كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي ﷺ قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله ، كالتفسير وأصول الدين وفروعه والزهد والعبادة والأخلاق والجهاد وغير

---

(١) سورة القمر ٤٣ .
(٢) سورة الصافات ٢٢ .
(٣) سورة التكوير ٧ .
(٤) سورة البقرة ٢١٤ .
(٥) سورة الممتحنة ٤ .
(٦) سورة التوبة ١٠١ .
(٧) سورة الأنفال ٧٥ .
(٨) سورة الحشر ١٠ .
(٩) سورة الجمعة ٣ .

ذلك ، فإنهم أفضل ممن بعدهم ، كما دل عليه الكتاب والسنة . فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم وتنازعهم .

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوماً ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافة قال تعالى : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾[1].

من أخطاء المتأخرين

وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ولا لهم خبرة بأقوالهم وأفعالهم ، بل هم في كثير مما يتكلمون به في العلم ، ويعلمون به ولا يعرفون طريق الصحابة والتابعين في ذلك من أهل الكلام والرأي والزهد والتصوف .

فهؤلاء تجد عمدتهم في كثير من الأمور المهمة في الدين ، إنما هو عما يظنونه من الإجماع وهم لا يعرفون في ذلك أقوال السلف البتة ، أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها ، فتارة يحلون الإجماع ولا يعلمون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين طائفة أو طائفتين أو ثلاث ، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف والأول كثير في مسائل أصول الدين وفروعه ، كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك ، يحلون إجماعاً ونزاعاً ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك البتة ، بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم .

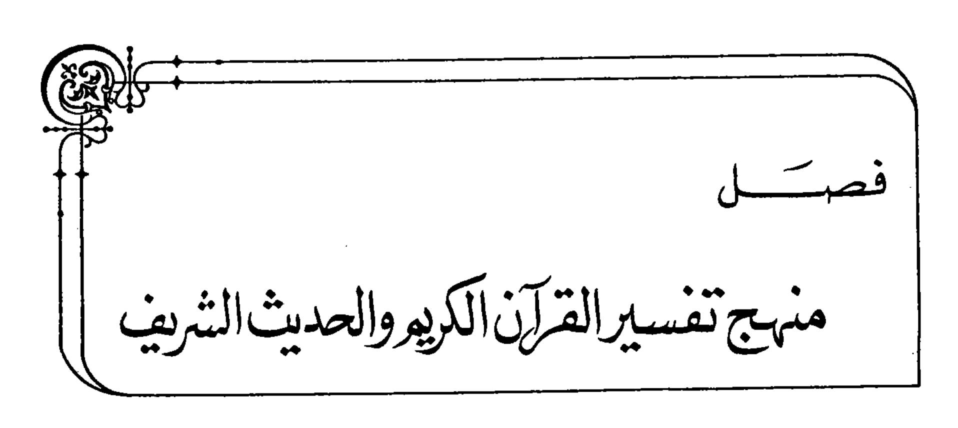
كما تجد في ذلك مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته ، مثل مسألة القرآن

---

(١) سورة النساء ٥٩.

والرؤية والقدر وغير ذلك ، وهم إذا ذكروا إجماع المسلمين ، ولم يكن لهم علم بهذا الاجماع فإنه لو أمكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع بإجماعهم في مسائل النزاع بخلاف السلف ، فإنه يمكن العلم بإجماعهم كثيراً . وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التي يكون كل قول من تلك الأقوال سائغاً لم يخالف إجماعاً لأن كثيراً من أصول المتأخرين محدث مبتدع في الاسلام ، مسبوق بإجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعاً ، كخلاف الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ، ممن قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة المعلومة ، وإجماع الصحابة بخلاف ما يعرف من نزاع السلف ، فإنه لا يمكن أن يقال إنه خلاف الإجماع ، وإنما يرد بالنص ، وإذا قيل قد أجمع التابعون على أحد قوليهم فارتفع النزاع ، فمثل هذا مبني على مقدمتين : إحداهما : العلم بأنه لم يبق في الأمة من يقول بقول الآخر ، وهذا متعذر .

الثاني : أن مثل هذا هل يرفع النزاع في قول مشهور، فنزاع السلف يمكن القول به إذا كان معه حجة ولم يرد نصٌّ على خلافه، ونزاع المتأخرين لا يمكن هذا [أي القول به]، لأن كثيراً منه قد تقدم الإجتماع على خلافه، كما دلت النصوص على خلافه. ومخالفة إجماع السلف خطأ قطعاً، وأيضاً فلم يبق مسألة في الدين إلا وقد تكلم فيها السلف ، فلا بد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه . وقد بسطنا في غير هذا الموضع أن الصواب في أقوالهم أكثر وأحسن ، وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرين ، وأن المتأخرين أكثر خطأ وأفحش ، وهذا في جميع علوم الدين ، ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضع عن استقصائها ، والله سبحانه أعلم .



فصل

منهج تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف

ومما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة ، فإنه قد عرف تفسيره ، وما أريد بذلك من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء : الأسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾[1].

وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم **اعتصامهم بالكتاب** والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات ، أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، فيه نبأ من قبلهم ، وخبر ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه ولا يحرف به لسانه ، ولا يخلق عن كثرة الترداد ، فإذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ولم يمل كغيره من الكلام ، لا تنقضي

---

(١) سورة النساء ١٩.

عجائبه ، ولا تشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدي إلى صراط مستقيم .

منهج السلف في نفسير القرآن الكريم

فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به ، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس ، ولا بذوق ووجد ومكاشفة ، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل فضلاً عن أن يقول ، فيجب تقديم العقل والنقل يعني القرآن والحديث ، وأقوال الصحابة والتابعين إما أن يفوض وإما أن يؤول . ولا فيهم من يقول أن ذوقاً أو وجداً أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث ، فضلاً عن أن يدعي أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول ، وأنه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته ، أو يقول الولي أفضل من النبي ، ونحو ذلك من مقالات أهل الإلحاد ، فإن هذه الأقوال لم تكن حدثت بعد في المسلمين . وإنما يعرف مثل هذه إما من ملاحدة اليهود والنصارى ، فإن فيهم من يجوز أن غير النبي أفضل من النبي ، كما قد يقوله في الحواريين ، فإنهم عندهم رسل ، وهم بقولون أفضل من داود وسليمان بل ومن إبراهيم وموسى ، وإن سموهم أنبياء إلى أمثال هذه الأمور .

ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتنسخها ، أو بسنة الرسول ﷺ تفسرها . فإن سنة رسول الله ﷺ تبين القرآن وتدل عليه وتعبر عنه ، وكانوا يسمونه ما عارض الآية ناسخاً لها ، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل ، وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها ، وإن كان لا يدل على ظاهر الآية بل قد[1] وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الإبهام والأفهام نسخاً[1] هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم وأصل ذلك[1] الشيطان ثم يحكم الله آياته ، فما ألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن

نسخاً ، كما سموا قوله : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم**﴾[1]ناسخاً لقوله : ﴿ **إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه .

إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن لا رأي ومعقول وقياس ، ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة .

بدعة الخوارج

وكانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج ، إنما هي من سوء فهمهم للقرآن لم يقصدوا معارضته ، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه ، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب ، إذ كان المؤمن هو البر التقي قالوا : فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر وهو مخلد في النار ، ثم قالوا : وعثمان وعليّ ومن والاهما ليسوا بمؤمنين ، لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله . فكانت بدعتهم لها مقدمتان ، الواحدة : أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه فهو كافر .

والثانية : أن عثمان وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك ، ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا ، فإنه أول بدعة ظهرت في الاسلام ، فكفر أهلها المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ الأحاديث الصحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم .

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه . ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه ، وأفرد البخاري قطعة منها ، وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن ، فكيف بمن يكون بدعته معارضة القرآن والإعراض عنه ، وهو مع ذلك يكفر المسلمين كالجهمية .

---

(١) سورة التغابن ١٦ .　　(٢) سورة البقرة ٢٨٤ .

بدعة التشيع

ثم الشيعة لما حدثوا لم يكن الذي ابتدع التشيع قصده الدين، بل كان غرضه فاسداً، وقد قيل إنه كان منافقاً زنديقاً، فأصل بدعتهم مبنية على الكذب على رسول اللّٰه ﷺ وتكذيب الأحاديث الصحيحة، ولهذا لا يوجد في فرق الأمة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم بخلاف الخوارج فإنه لا يعرف فيهم من يكذب.

روايات الشيعة

(والشيعة) لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ، ولهذا أعرض عنهم أهل الصحيح فلا يروي البخاري ومسلم أحاديث عليّ إلا عن أهل بيته كأولاده مثل الحسن والحسين ، ومثل محمد بن الحنفية ، وكاتبه عبيد الله بن أبي رافع أو أصحاب ابن مسعود وغيرهم مثل عبيدة السلماني ، والحرث التيمي ، وقيس بن عباد ، وأمثالهم . إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن عليّ ، فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم .

نشأة الخوارج والشيعة

وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة ؛ حدثوا بعد مقتل عثمان ، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته ، متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان .

ولما اقتتل المسلمون بصفين واتفقوا على تحكيم حكمين خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء، فكفّ عنهم أمير المؤمنين وقال: لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفيء . ولا نمنعكم المساجد إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن حباب ، وأغاروا على سرح المسلمين ،

فعلم على أنهم الطائفة التي ذكرهم رسول الله ﷺ حيث قال : « يحقر أحدكم صلاته من صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات » .

وفي رواية : « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله ﷺ وقال : هم هؤلاء القوم ، قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ، ووجد العلامة بعد أن كاد لا يوجد فسجد لله شكراً .

طوائف الشيعة

وحدث في أيامه الشيعة ، لكن كانوا مختفين بقولهم لا يظهرونه لعلي وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف .

طائفة تقول : أنه إله ، وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقهم بالنار ، وخدّ لهم أخاديد عند باب مسجد بني كنده وقيل إنه أنشد :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبرا

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : أتي عليّ بزنادقة فحرقهم بالنار . ولو كنت أنا لم أحرقهم لنهى النبي ﷺأن يعذب بعذاب الله ، ولضربت أعناقهم لقوله : « من بدل دينه فاقتلوه » .

وهذا الذي قاله ابن عباس ، هو مذهب أكثر الفقهاء ، وقد روى أنه أجلهم ثلاثاً .

(**والثانية**) السبابة وكان قد بلغه عن أبي السوداء أنه كان يسب أبا بكر وعمر فطلبه ، قيل إنه طلبه ليقتله فهرب منه .

(**والثالثة**) المفضلة الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه

قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر .

وروى ذلك البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر . ثم من ؟ قال : عمر .

الشيعة الأولى

وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون في تفضيل أبي بكر وعمر ، وإنما كان للنزاع في علي وعثمان ، ولهذا قال شريك بن عبد الله : إن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر . فقيل له : تقول هذا وأنت من الشيعة . فقال : كل الشيعة كانوا على هذا وهو الذي قال هذا علي أعلى أعواد منبره أفتكذبه فيما قال ، ولهذا قال سفيان الثوري : من فضّل علياً على أبي بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار . وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل، وهو كذلك رواه أبو داود في سننه وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حي فإن الزيدية الصالحة وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه .

ولكن الشيعة لم يكن لهم في ذلك الزمان جماعة المسلمين ولا إمام ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج تميزوا بالإمام والجماعة والدار ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب .

وكلا للطائفتين تطعن بل تكفر ولاة المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعلياً ومن تولاهما ، والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهما ، ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج من سفك الدماء . وأخذ الأموال والخروج بالسيف ، فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم والأحاديث في ذمهم ، والأمر بقتالهم كثيرة جداً وهي متواترة عند أهل الحديث ، مثل أحاديث الرؤية وعذاب القبر وفتنه ، وأحاديث الشفاعة والحوض .

ذمُّ القدرية والمرجئة

(وقد رويت أحاديث في ذم القدرية والمرجئة) روى بعضها أهل السنن ،

كأبي داود وابن ماجه ، وبعض الناس يثبتها ويقويها ، ومن العلماء من طعن فيها وضعفها ، ولكن الذي ثبت في ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة كابن عمر وابن عباس .

نشأة الرافضة

(**وأما لفظ الرافضة**) فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام لما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك واتبعه الشيعة ، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما وترحم عليهما فرفضه قوم ، فقال : رفضتموني رفضتموني . فسموا الرافضة ، فالرافضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي زيديه ، والزيدية يتولون وينسبون إليه ، ومن حينئذ انتمت الشيعة إلى زيدية ، والرافضة إمامية .

نشأة القدرية والمجبرة

(**ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية**) وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله ، والإيمان بأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وظنوا أن ذلك ممتنع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي ، لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر ، وهو يعلم أن المأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد ، فلما بلغ قولهم بإنكار القدر السابق للصحابة ، أنكروا إنكاراً عظيماً وتبرءوا منهم ، حتى قال عبد الله بن عمر : أخبر أولئك أني بريء منهم وأنهم مني برآء ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر : لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، وذكر عن أبيه حديث جبريل ، وهذا أول حديث في صحيح مسلم ، وقد أخرجه البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة أيضاً مختصراً .

ثم كثر الخوض في القدر ، وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام ، وبعضه في المدينة ، فصار مقتصدوهم وجمهورهم يقرون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس في الإرادة وخلق أفعال العباد ، فصاروا في ذلك حزبين . النفاة يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة وهو لم يرد إلا ما أمر به ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد . وقابلهم الخائضون في القدر من المجبرة مثل الجهم بن صفوان وأمثاله ، فقالوا ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة ، وقالوا العبد لا فعل له البتة ولا قدرة بل الله هو الفاعل القادر فقط وكان جهم مع ذلك ينفي الأسماء والصفات ، يذكر عنه أنه قال : لا يسمى الله شيئاً ولا غير ذلك من الأسماء التي تسمى بها العباد إلا القادر فقط ، لأن العبد ليس بقادر .

وكانت الخوارج قد تكلموا في تكفير أهل الذنوب من أهل القبلة ، وقالوا إنهم كفار مخلدون في النار ، فخاض الناس في ذلك وخاض في ذلك القدرية بعد موت الحسن البصري ، فقال عمرو بن عبيد وأصحابه لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المنزلتين ، وهم مخلدون في النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مخلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الإسلام والإيمان شيء ، ولكن لم يسموهم كفاراً واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري مثل قتادة وأيوب السختياني وأمثالهما .

فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن وقيل : إن قتادة كان يقول أولئك المعتزلة .

الأسماء والأحكام

وتنازع الناس في الأسماء والأحكام ، أي في أسماء الدين مثل مسلم ومؤمن وكافر وفاسق ، وفي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة، فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم في الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا من دمائهم وأموالهم ما استحلته

الخوارج ، وفي الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين ، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا فيها وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم .

(**وحدثت المرجئة**) وكان أكثرهم من أهل الكوفة ولم يكن أصحاب عبد الله من المرجئة ، ولا إبراهيم النخعي وأمثاله ، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة ، فقالوا : إن الأعمال ليست من الإيمان .

وكانت هذه البدعة أخف البدع ، فإن كثيراً من النزاع فيها نزاع في الإسم واللفظ دون الحكم ، إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول مثل حماد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما هم مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك ، وعلى أنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه ، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب ، فكان في الأعمال هل هي من الإيمان وفي الاستثناء ونحو ذلك ، وعامته نزاع لفظي ، فإن الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال لقول النبي ﷺ : « الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » وإذا عطف عليه العمل كقوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾[1] فقد ذكر مقيداً بالعطف فهنا قد يقال الأعمال دخلت فيه وعطفت عطف الخاص على العام ، وقد يقال لم تدخل فيه ، ولكن مع العطف كما في اسم الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما تناول الآخر ، وإذا عطف أحدهما على الآخر فهما صنفان كما في آية الصدقات كقوله : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾[2] وكما في آية الكفارة كقوله : ﴿ **فكفارته إطعام عشرة مساكين** ﴾[3] . وفي قوله : ﴿ **وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾[4]

---

(١) سورة البقرة ٢٧٧ .
(٢) سورة التوبة ٦٠ .
(٣) سورة المائدة ٨٩ .
(٤) سورة البقرة ٢٧ .

، فالفقير والمسكين شيء واحد ، وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البر والتقوى والمعروف ، وفي الإثم والعدوان والمنكر تختلف دلالتها في الإفراد والإقتران لمن تدبر القرآن ، وقد بسط هذا بسطاً كبيراً في الكلام على الإيمان وشرح حديث جبريل الذي فيه بيان أن الإيمان أصله في القلب . وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله كما في المسند عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » ، فإذا كان الإيمان في القلب ، فقد صلح القلب فيجب أن يصلح سائر الجسد ، فذلك هو ثمرة ما في القلب ، فلهذا قال بعضهم : الأعمال ثمرة الإيمان ، وصحته لما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت في الاسم ، كما نطق بذلك الكتاب والسنة في غير موضع ، وفي الجملة الذين رموا بالإرجاء من الأكابر مثل : طلق بن حبيب وإبراهيم التيمي ونحوهما كان إرجاؤهم من هذا النوع .

الاستثناء في الايمان

(**وكانوا أيضاً**) لا يستثنون في الإيمان ، وكانوا يقولون الإيمان هو الإيمان الموجود فينا ، ونحن نقطع بأنا مصدقون ، ويرون الاستثناء شكا ، وكان عبد الله بن مسعود وأصحابه يستثنون ، قد روى في حديث أنه رجع عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ ما قال . لكن أحمد أنكر هذا وضعف هذا الحديث وصار الناس في الاستثناء على ثلاثة أقوال :

قول : إنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كان مبتدعاً .

وقول : إن الاستثناء محظور فإنه يقتضي للشك في الإيمان .

والقول الثالث أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار ، وتركه باعتبار . فإذا كان مقصوده إني لا أعلم إني قائم في كل ما أوجب الله علي وأنه يقبل أعمالي ليس مقصوده الشك فيما في قلبه ، فهذا استثناؤه حسن وقصده أن لا

يـزكي نفسه وأن لا يقـطع بأنـه عمل عمـلاً كما أمـره فقبـل منـه والـذنـوب كثيـرة والنفـاق مخـوف عـلى عـامـة النـاس ، قـال ابن أبي مليكـة : أدركت ثـلاثـين من أصحـاب محمد كلهم يخـاف النفاق عـلى نفســه ، لا يقـول واحـد منهم أن إيمـانـه كإيمان جبريل وميكائيل ، والبخاري في أول صحيحه بـوَّب أبوابـاً في الإيمان والـرد عـلى المرجئـة ، وقد ذكـر بعض من ضعف في هذا البـاب من أصحاب أبي حنيفـة قـال : وأبو حنيفـة وأبو يـوسف ومحمد كـرهوا أن يقـول الـرجـل : إيمـاني كـإيمـان جبريل وميكائيل ، قال محمد : لأنهم أفضـل يقيناً . أو إيمـاني كإيمـان جبريـل ، أو إيماني كإيمان أبي بكر أو كإيمان هـذا ، ولكن يقول : آمنت بمـا آمن به جبـريل وأبـو بكر .

وأبـو حنيفة وأصحـابه لا يجـوزون الاستثناء في الإيمـان بكـون الأعمـال منـه ويـذمون المـرجئة عنـدهم الـذين لا يـوجبـون الفـرائض ولا اجتنـاب المحـارم بـل يكتفـون بـالإيمـان ، وقـد علل تحـريم الاستثنـاء فيـه بـأنـه لا يصـح تعليقـه عـلى الشـرط ، لأن المعلق على الشـرط لا يوجـد إلا عند وجـوده ، كما قـالوا في قـولـه : أنت طـالق إن شاء الله ، فـإذا علق الإيمان بـالشرط كسـائر المعلقـات بالشـرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط . . قالوا : وشـرط المشيئة الـذي يترجـاه القائـل لا يتحقق حصوله إلى يـوم القيامـة ، فإذا علق العـزم بالفعـل على التصـديق والإقرار فقـد ظهـرت المشيئـة وصـح العقـد فـلا معنى لـلاستثنـاء ، ولأن الاستثنـاء عقيب الكـلام يرفـع الكلام فـلا يبقى الإقرار بـالإيمان والعقـد مؤمناً ، وربمـا يتوهم هـذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق ، وذلك يزيله .

(قلت) فتعليلهم في المسـألة إنمـا يتـوجـه فيمن يعلق إنشـاء الإيمـان علـى المشيئـة ، كالـذي يريـد الدخـول في الاسلام فيقـال له آمن فيقـول : أنـا أومن إن شـاء الله ، أو آمنت إن شـاء الله ، أو أسلمت إن شـاء الله ، أو أشهـد إن شـاء الله أن لاإلـه إلا الله وأشهد إن شـاء الله أن محمداً رسـول الله ، والذين استثنـوا من السلف والخلف لم يقصـدوا في الانشاء وإنمـا كان استثنـاؤهم في إخباره عـما قد

حصل له من الإيمان فاستثنوا ، إما أن الإيمـان المطلق يقتضي دخـول الجنة وهم لا يعلمـون الخاتمـة ، كأنـه إذا قيل للرجـل أنت مؤمن ، قيل لـه أنت عند الله مؤمن من أهل الجنة ، فيقـول : أنا كـذلك إن شـاء الله ، أو لأنهم لا يعرفـون أنهم أتوا بكمـال الإيمان الـواجب ، ولهـذا كـان من جـواب بعضهم إذا قيـل لـه أنت مؤمن آمنت بالله وملائكته وكتبه فيجزم بهذا ولا يعلقـه ، أو يقول إن كنت تـريد الإيمـان الذي يعصم دمي ومالي فأنا مؤمن ، وإن كنت تريد قوله : ﴿ **إنما المؤمنون الـذين إذا ذكـر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آيـاتـه زادتهم إيمـانـاً وعـلى ربهم يتـوكلون الـذين يقيمـون الصـلاة ومما رزقنـاهم ينفقـون أولئـك هم المؤمنـون حقاً** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **إنما المؤمنون الـذين آمنوا بـالله ورسولـه ثم لم يرتـابوا وجـاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾[2] فأنا مؤمن إن شـاء الله ، وأمـا الاستثناء لم يستثن فيـه أحد ولا شـرع الاستثناء فيـه بـل كـل من آمن وأسلم جزماً بلا تعليق .

فتبين أن النزاع في المسـألة قـد يكون لفـظياً ، فـإن الذي حـرمه هؤلاء غـير الـذي استحسنه وأمـر به أولئـك ، ومن جزم جـزم بما في قلبـه من الحـال ، وهـذا حق لا ينـافي تعليق الكمـال والعـاقبـة ، ولكن هؤلاء عنـدهم الأعمـال ليست من لإيمان فصار الإيمان هو الإسـلام عند أولئك .

مذهب أهل الحديث في الإستثناء

(والمشهور عند أهل الحديث أنـه لا يستثني في الإسلام) وهـو المشهور عنـد أحمـد رضي الله عنه ، وقـد روى عنه فيـه الاستثنـاء كـما قـد بسط هـذا في شـرح حديث جبريل وغيره من نصوص الإيمان التي في الكتاب والسنة .

---

(١) سورة الأنفال ٢ ـ ٣ .　　(٢) سورة الحجرات ١٥ .

(**ولو قال لامرأته أنت طالق إن شاء الله**) ففيه نزاع مشهور ، وقد رجحنا التفصيل ، وهو أن الكلام يراد به شيئان ، يراد به إيقاع الطلاق تارة ، ويراد به منع إيقاعه تارة ، فإن كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ فقوله : إن شاء الله مثل قوله : بمشيئة الله ، وقد شاء الله الطلاق حين أتى بالتطليق فيقع ، وإن كان قد علق لئلا يقع أو علق على مشيئة توجد بعد هذا لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا ، فإنه حينئذ شاء الله أن يطلق .

وقول من قال : المشيئة تنجزه ليس كما قال ، بل نحن نعلم قطعاً أن للطلاق لا يقع إلا إذا طلقت المرأة ، بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه من ولي أو وكيل ، فإذا لم يوجد تطليق لم يقع طلاق قط ، فإذا قال : أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطليق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليقه لئلا يقع الآن ، وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلته بالمشيئة توكيداً وتحقيقاً فهذا يقع به الطلاق .

مبحث الاحكام في تعليق الإيمان على المشيئة

وما أعرف أحداً **أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة** فإذا علقه فإن كل مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله أنا أومن بعد ذلك ، فهذا لم يصر مؤمناً مثل الذي يقال له : هل تصير من أهل دين الاسلام . فقال : أصير إن شاء الله ، فهذا لم يسلم ، بل هو باق على الكفر وإن كان قصده إني قد آمنت وإيماني بمشيئة الله صار مؤمناً ، لكن إطلاق اللفظ يحتمل هذا وهذا ، فلا يجوز إطلاق مثل هذا اللفظ في الإنشاء ، وأيضاً فإن الأصل أنه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلاً ، فأما الماضي والحاضر فلا يعلق المشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنشاء كما تقدم ، كيف وقد أمروا أن يقولوا ﴿ **آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **آمن الرسول**

---

(1) سورة البقرة ١٣٦ .

بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾[1] فأخبر أنهم آمنوا ، فوقع الإيمان منهم قطعاً بلا استثناء .

وعلى كل أحد أن يقول : آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ما استثنى أحد من السلف قط في مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن ، كما يخبر عن نفسه بأنه برّ تقي فيقول القائل له أنت مؤمن ، هو عندهم كقوله : هل أنت بر تقي ، فإذا قال أنا بر تقي فقد زكى نفسه ، فيقول إن شاء الله وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له وجزاؤه عليه وكتابة الملك له ، فالاستثناء يعود إلى ذلك لا إلى ما علمه هو من نفسه وحصل واستقر ، فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة ، بل يقال هذا حاصل بمشيئة الله وفضله وإحسانه ، وقوله فيه إن شاء الله بمعنى إذا شاء الله ، وذلك تحقيق لا تعليق ، والرجل قد يقول : والله ليكونن كذا إن شاء الله وهو جازم بأنه يكون ، فالمعلق هو الفعل كقوله : ﴿ **لتدخلنَّ المسجد الحرام إن شاء الله**﴾[2] والله عالم بأنهم سيدخلونه ، وقد يقول الآدمي : لأفعلن كذا إن شاء الله وهو لا يجزم بأنه يقع لكن يرجوه ، فيقول يكون إن شاء الله ثم عزمه عليه قد يكون جازماً ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متردداً معلقاً بالمشيئة أيضاً ، ولكن متى كان المعزوم عليه معلقاً لزم تعليق بقاء العزم ، فإنه بتقدير أن تعليق العزم ابتداءً أو دواماً في مثل ذلك .

ولهذا لم يحنث المطلق المعلق وحرف أن لا يكون لا يبقى العزم ، فلا بد إذا دخل على الماضي صار مستقبلاً تقول إن جاء زيد كان كذلك ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ**﴾[3] .

وإذا أريد الماضي دخل حرف كان كقوله : ﴿ **إن كنتم تحبون الله**

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥ .   (٢) سورة الفتح ٢٨ .   (٣) سورة البقرة ١٣٧ .

فاتبعوني ﴾[1] فيفرق بين قوله : أنا مؤمن إن شاء الله وبين قوله : إن كان الله شاء إيماني . وكذلك إذا كان مقصوده إني لا أعلم بماذا يختم لي ، كما قيل لأبي مسعود : إن فلاناً يشهد أنه مؤمن قال : فليشهد أنه من أهل الجنة ، فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان . وكذلك إن كان مقصوده إن إيماني حاصل بمشيئة الله . ومن لم يستثن قال : أنا لا أشك في إيمان قلبي فلا جناح عليه إذا لم يزك نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر وقد تقبل الله عمله ، وإن لم يقل إن إيمانه كإيمان جبريل وأبي بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة ، كما كان مسعر بن كدام يقول : أنا لا أشك في إيماني .

قال أحمد : ولم يكن من المرجئة ، فإن المرجئة الذين يقولون الأعمال ليست من الإيمان وهو كان يقول : هي من الإيمان ، لكن أنا لا أشك في إيماني .

وكان الثوري يقول لسفيان بن عيينة : ألا تنهاه عن هذا ، فإنهما من قبيلة واحدة ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النزاع في هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة في كثير من الأحكام ، وكلهم من أهل الإيمان والقرآن .

قول جهم بن صفوان في الإيمان

(**وأما جهم**) فكان يقول : إن الإيمان مجرد تصديق القلب ، وإن لم يتكلم به ، وهذا القول لا يعرف عن أحد من علماء الأئمة وأئمتها ، بل أحمد ووكيع وغيرهما كفروا من قال بهذا القول ، ولكن هو الذي نصره الأشعري وأكثر أصحابه ، ولكن قالوا مع ذلك أن كل من حكم الشرع بكفره ، حكمنا بكفره واستدللنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة ، وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم في الإيمان .

---

(١) سورة آل عمران ٣١.

والأصل الذي نشأ منه النزاع، اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمناً لم يكن معه شيء من الكفر والنفاق، وظن بعضهم أن هذا إجماع كما ذكر الأشعري : أن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الإرجاء كما كان أصل القدر وعجزهم عن الإيمان بالشرع والقدر جميعاً ، فلما كان هذا أصلهم صاروا حزبيين .

مذهب الخوارج في الإيمان

قالت الخوارج والمعتزلة : قد علمنا يقيناً أن الأعمال من الإيمان ، فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه ، لأن الإيمان لا يتبعض ، ولا يكون في العهد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين في النار إذا كان ليس معهم من الإيمان شيء .

مذهب المرجئة

وقالت المرجئة : مقتصديهم وغلاتهم كالجهمية ، قد علمنا أن أهل الذنوب من أهل القبلة لا يخلدون في النار بل يخرجون منها كما تواترت بذلك الأحاديث ، وعلمنا بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة أنهم ليسوا مرتدين ، فإن الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله ، وجاءت السنة بجلد الشارب لا بقتله ، فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب قتلهم ، وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج فخالفوهم في أحكامهم في الدنيا .

منهج الخوارج في الإستدلال بالسنة

والخوارج لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم ، فلا يرجمون الزاني ولا يرون للسرقة نصاباً ، وحينئذ فقد يقولون : ليس في القرآن قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

وأقوال الخوارج إنما عرفناك من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف ، كما وقفنا على كتب المعتزلة والرافضة والزيدية والكرامية والأشعرية والسابلية وأهل المذاهب الأربعة والظاهرية ومذاهب أهل الحديث والفلاسفة

والصوفية ونحو هؤلاء ، وقد بسط الكلام على تفصيل القوم في أقوال هؤلاء غير هذا الموضع .

(وإن الناس في ترتيب أهل الأهواء على أقسام) منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج ، ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه ، فيبدأ بالمرجئة ، ويختم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضي الله عنه كعبد الله ابنه ونحوه ، وكالخلال وأبي عبد الله بن بطة وأمثالهما ، وكأبي الفرج المقدسي ، وكلا الطائفتين تختم بالجهمية لأنهم أغلظ البدع ، وكالبخاري في صحيحه فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية .

ولما صنف الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات فيكون الكلام أولاً مع الجهمية ، وكذلك رتب أبو القاسم الطبري كتابه في أصول السنة ، والبيهقي أفرد لكل صنف مصنفاً فله مصنف في الصفات ومصنف في القدر ، ومصنف في شعب الإيمان ، ومصنف في دلائل النبوة ، ومصنف في البعث والنشور ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن منشأ النزاع في الأسماء والأحكام في الإيمان والإسلام ، أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض ، قال أولئك فإذا فعل ذنباً زال بعضه فيزول كله فيخلد في النار ، فقالت الجهمية والمرجئة : قد علمنا أنه ليس يخلد في النار ، وأنه ليس كافراً مرتداً بل هو من المسلمين ، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمناً تام الإيمان معه بعض الإيمان لأن الإيمان عندهم لا يتبعض ، فاحتاجوا أن يجعلوا الايمان شيئاً واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة ، فقال فقهاء المرجئة : هو التصديق بالقلب والقول باللسان ، فقالت الجهمية : بعد تصديق اللسان قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهاً ، فالذي لا بد منه تصديق القلب .

مذهب الصحابة في زيادة الإيمان ونقصانه

وقالت المرجئة : الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال ، وأنكر كل هذه الطوائف أنه ينقص .

مذهب الإمام مالك

(**والصحابة**) قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول أئمة السنة ، وكان ابن المبارك يقول : هو يتفاضل ويتزايد ويمسك عن لفظ ينقص .

وعن مالك في كونه لا ينقص روايتان ، والقرآن قد نطق بالزيادة في غير موضع ، ودلت النصوص على نقصه كقوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ونحو ذلك ، لكن لم يعرف هذا اللفظ إلا في قوله في النساء « ناقصات عقل ودين » وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي ، وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص .

وذلك أن أصل السنة : بأن الايمان يتفاضل من وجهين : من جهة أمر الرب ، ومن جهة فعل العبد ، أما الأول فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص ، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار الإيمان ، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك ، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة ، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة ، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة ، وأيضاً فمن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملاً ، وهذا يجب فيه الإيمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها فلم تتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان .

غلط المرجئة في فهم الإيمان

وهـذا من أصول غلط المـرجئة فـإنهم ظنوا أنـه شيء واحد وأنـه يستوى فيـه جميـع المكلفين فقـالوا : إيمـان الملائكـة والأنبياء وأفسق النـاس سواء ، كـما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أو قـرأ فاتحـة الكتاب كـان لفظه كلفظ غيـره من الناس ، فيقال لهم :

تنوع الإيمان وتفاضله بتنوع المكلفين

قد تبين أن الإيمـان الذي أوجبـه الله على عبـاده يتنوع ويتفـاضل ويتبـاينون فيه تباينـاً عظيـماً ، فيجب على المـلائكة من الإيمـان ما لا يجب عـلى البشر ، ويجب عـلى الأنبياء من الإيمـان ما لا يجب عـلى غيرهم ، ويجب عـلى البشر ، ويجب عـلى الأنبيـاء من الإيمان . ألا يجب عـلى غيـرهم ، ويجب عـلى العلماء مـا لا يجب عـلى غيرهم ، ويجب على الأمراء ما لا يجب عـلى غيرهم ، وليس المـراد أنه يجب عليهم من العمـل فقط بل ومن التصـديق والإقـرار ، فـإن النـاس وإن كـان يجب عليهم الإقرار المجمل بكل ما جاء به الرسول ، فأكثرهم لا يعرفون تفصيـل كل مـا أخبر بـه ، وما لم يعلمـوه كيف يؤمرون بـالإقرار بـه مفصلاً ، ومـا لم يؤمر بـه العبـد من الأعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الآمر به ، فمن أمـر بحج وجب عليـه معرفـة مـا أمر بـه من أعمال الحـج والإيمان بهـا ، فيجب عليه من الإيمـان والعمل مـا لا يجب على غيره .

وكذلك من أمر بالـزكاة يجب عليـه معرفـة ما أمـر الله به من الـزكاة ، ومن الإيمـان بذلـك والعمل بـه مـا لا يجب عـلى غيـره فيجب عليـه من العلم والإيمـان والعمـل مـا لا يجب عـلى غيـره ، إذا جعـل العلم والعمـل ليسـا من إيمـان ، وإن جعل جميع ذلـك داخلاً في مسمى الإيمـان كان أبلغ ، فبكـل حال قـد وجب عليه من الإيمان ما لا يجب على غيره .

ولهـذا كان من النـاس من قد يؤمن بـالـرسـول مجمـلاً ، فـإذا جـاءت أمـور

أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقاً مثل طائفة نافقت لما حوِّلت القبلة إلى الكعبة وطائفة نافقت لما انهزم المسلمون يوم أُحد ونحو ذلك .

ولهذا وصف الله المنافقين في القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا كما ذكر ذلك في سورة المنافقين ، وذكر مثل ذلك في سورة البقرة فقال : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون**﴾[1] وقال : طائفة من السلف عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا .

فمن هؤلاء من كان يؤمن أولاً إيماناً مجملاً ، ثم يأتي أموراً يؤمن بها فينافق في الباطن ، وما يمكنه إظهار الردة بل يتكلم بالنفاق مع خاصته وهذا كما ذكر الله عنهم في الجهاد فقال : ﴿ **فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم**﴾[2] .

وبالجملة فلا يمكن المنازعة أن الإيمان الذي أوجبه الله يتباين فيه أحوال الناس ويتفاضلون في إيمانهم ودينهم بحسب ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ في النساء : « ناقصات عقل ودين » وقال في نقصان دينهن : أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي ، وهذا مما أمر الله به فليس هذا النقص ديناً لها تعاقب عليه ، لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة في هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة في كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها ، وإن لم يكن عاصياً فهذا أفضل ديناً وإيماناً ، وهذا المفضول ليس بمعاقب ومذموم فهذه زيادة كزيادة الإيمان بالتطوعات لكن هذه زيادة بواجب في حق شخص وليس بواجب في حق شخص غيره ، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها ، وذاك لا يستحق العقاب بتركها ولكن إيمان ذلك

---

(١) سورة البقرة ١٨ ـ ١٩ .　　(٢) سورة محمد ٢٠ ـ ٢١ .

أكمل . قال النبي ﷺ «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً » .

فهذا يبين تفاضل الإيمان في نفس الأمر به وفي نفس الأخبار التي يجب التصديق بها.

والنوع الثاني : وهو تفاضل الناس في الإتيان به مع استوائهم في الواجب .

وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع ، وهذا أيضاً يتفاضلون فيه ، فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخلَّ ببعضها، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه ، بل هذا أفضل ديناً وبراً وتقوى . فهو كذلك أفضل إيماناً كما قال النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » وقد يجتمع في العبد إيمان ونفاق ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺقال : « أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذاحدَّث كذب ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وأصل هؤلاء أن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع العباد فيما أوجبه الرب من الايمان ، وفيما يفعله العبد من الأعمال ، فغلطوا في هذا ثم تفرقوا كما تقدم .

وصارت المرجئة على ثلاثة أقوال ، فعلماؤهم وأئمتهم : أحسنهم قولاً ، وهو إن قالوا الإيمان تصديق القلب وقول اللسان .

وقالت الجهمية : هو تصديق القلب فقط ، فمن تكلم به فهو مؤمن كامل الإيمان ، لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة ، وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً مؤمناً من أهل النار .

(**وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته**) ولم يسبقها أحد إلى هذا القول وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الإيمان ، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة وهو غلط عليهم ، بل

يقولون إنه مؤمن كامل الإيمان ، وأنه من أهل النار ، فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل الإيمان معذباً في النار بل يكون مخلداً فيها .

وقد تواتر عن النبي ﷺ : « أنه يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وإن قالوا لا يخلد وهو منافق لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار ، والمنافقون قد قال الله فيهم : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾[1] .

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وقال له : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾[2] وقال : ﴿ **ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾[3] وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله . فإن قالوا هؤلاء فقد كانوا يتكلمون بألسنتهم سراً فكفروا بذلك ، وإنما يكون مؤمناً إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقض ، فإن ذلك رده عن الإيمان ، قيل لهم ولو أضمروا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين .

قال تعالى يحذر المنافقين أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم : ﴿ **قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون** ﴾[4] وأيضاً قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وأنهم كاذبون ، فقال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون** ﴾[6] .

وقد قال النبي ﷺ : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » وقد قال الله

---

(١) سورة النساء ١٤٥ .
(٢) سورة التوبة ٨٠ .
(٣) سورة التوبة ٨٤ .
(٤) سورة التوبة ٦٤ .
(٥) سورة البقرة ٩ .
(٦) سورة المنافقون ١ .

تعالى ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾[1].

وفي الصحيحين عن سعد أن النبي ﷺ أعطى رجالاً ولم يعط رجلاً ، فقلت : يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن ؟ فقال : « أو مسلم مرتين أو ثلاثاً » وبسط الكلام في هذا له مواضع أخر ، وقد صنفت في ذلك مجلداً غير ما صنفت فيه غير ذلك .

وكلام الناس في هذا الاسم ومسماه كثير ، لأنه قطب الدين الذي يدور عليه وليس في القول إسم علق به السعادة والشقاء والمدح والذم والثواب والعقاب أعظم من اسم الإيمان والكفر ، ولهذا سمى هذا الأصل مسائل الأسماء والأحكام ، وقد رأيت لابن الهيضم فيه مصنفاً في أنه قول اللسان فقط ، ورأيت لابن الباقلاني فيه مصنفاً أنه تصديق القلب فقط ، وكلاهما في عصر واحد وكلاهما يرد على المعتزلة والرافضة .

اعتصام السلف بالقرآن والإيمان

(**والمقصود هنا أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان**) فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً ، صار هؤلاء عمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان ، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول وغير ذلك ، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتها ، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى إذ كان اعتمادهم في نفس الأمر إلى غير ذلك ، والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردها كيف

---

(١) سورة الحجرات ١٤ .

أمكن ، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها .

مسألة أصولية : إذا اختلفت الأمة في تأويل آية على قولين

ولهذا قال كثير منهم كأبي الحسين البصري ومن تبعه كالرازي والآمدي وابن الحاجب : أن الأمة إذا اختلفت في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين ؛ فجوزوا أن تكون الأمة مجتمعة على الضلال في تفسير القرآن والحديث ، وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون ، ولكن قالوا إن الله أراد معنى آخر ، وهم لو تصوروا هذه المقالة لم يقولوا هذا ، فإن أصلهم أن الأمة لا تجتمع على ضلالة ، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ والصواب قول ثالث لم يقولوه ، لكن قد اعتادوا أن يتأولوا ما خالفهم .

مفهوم التأويل عند السلف

والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال في لفظ الآية يجوز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ ، ولم يستشعروا أن المتأول هو مبين لمراد الآية مخبر عن الله تعالى ، أنه أراد هذا المعنى ، إذا حملها على معنى . وكذلك إذا قال يجوز أن يراد بها هذا المعنى ، والأمة قبله لم يقولوا أريد بها إلا هذا أو هذا ، فقد جوزوا أن يكون ما أراده الله لم يخبر به الأمة ، وأخبرت أن مراده غير ما أراده ، لكن الذي قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير حكم بأنه مراد ، وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ضالة عن معرفته ، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا الآية ، ولكن طائفة قالت : يجوز أن يريد هذا المعنى . وطائفة قالت : يجوز أن يريد هذا المعنى ، وليس فيهم من علم المراد . فجاء الثالث وقال ههنا معنى يجوز أن يكون هو المراد ، فإذا كانت الأمة من الجهل بمعاني القرآن والضلال عن مراد الرب بهذه الحال توجه ما قالوه . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن كثيراً من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون في دينهم لا على القرآن ولا على الإيمان الذي جاء به الرسول بخلاف السلف ، فلهذا كان السلف أكمل علماً وإيماناً وخطؤهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه ، وكان الأصل الذي أسسوه هو ما أمرهم الله به في قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم**﴾[1] فإن هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين** ﴾[2] فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول وأنهم بأمره يعملون ، فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله كما قال : ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ . وأعمالهم تابعة لأمره فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به فهم مطيعون لأمره سبحانه . وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار فقال : ﴿ **قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[3] وقد ظن بعضهم أن هذا توكيد ، وقال بعضهم : بل لا يعصونه في الماضي ويفعلون ما أمروا به في المستقبل ، وأحسن من هذا وهذا ، أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال ، فلو لم يفعل ما أمر به لعجزه لم يكن عاصياً فإذا قال : لا يعصون الله ما أمرهم . لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون، فإن العاجز ليس بعاصٍ ولا فاعل لما أمر به . فقال : ويفعلون ما يؤمرون ، ليبين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به فهم لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية ، والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين ، إما أن لا يكون قادراً وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة ، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الأمر

---

(١) سورة الحجرات ١ . (٢) سورة الإنبياء ٢٧ ـ ٣٠ . (٣) سورة التحريم ٦ .

وهو قادر ، وجب وجود فعل ما أمر بـه ، فكذلـك الملائكـة المذكـورون لا يعصون الله مـا أمـرهـم ويفعلون مـا يؤمـرون ، وقـد وصف المـلائكـة بـأنهم : ﴿ **عبـاد مكرمون لا يسبقـونه بـالقول وهم بـأمره يعملون يعلم مـا بين أيـديهم وما خلفهم ولا يشفعـون إلا لمن ارتضى وهـم من خشيته مشفقـون ومن يقـل منهم إني إلـه من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين** ﴾[1] .

فالملائكـة مصدقـون بخبر ربهم ، مـطيعون لأمـره ولا يخبرون حتى يخبـر ولا يعملون حتى يـأمر كـما قال تعـالى : ﴿ **لا يسبقونـه بالقـول وهم بأمـره يعملون** ﴾ وقـد أمر الله المؤمنـين أن يكونـوا مع الله ورسـوله ، كـذلك فـإن البشر لم يسمعوا كـلام الله منه ، بـل بينهم وبينه رسـول من البشر فعليهم أن لا يقولـوا حتى يقـول الرسول ما بلغهم عن الله ولا يعملون إلا بما أمرهم به كـما قال تعـالى : ﴿ **يا أيهـا الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم** ﴾[2]

قال مجاهد : لا تفتاتـوا عليه بشيء حتى يقضيـه الله على لسـانه ، تقـدموا : معناه تتقدموا وهو فعل لازم ، وقد قرىء يقدموا . يقال : قـدم وتقدم ، كـما يقال بين وتبين ، وقـد يستعمل قـدم متعديـاً أي قدم غيـره لكن هنا هـو فعل لازم فـلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله .

نصيحة ابن تيمية للمتكلمين في الدين

فعـلى كـل مؤمن أن لا يتكلم في شيء من الـدين إلا تبعـاً لمـا جـاء بـه الرسول ، ولا يتقدم بين يديه بـل ينظر مـا قال فيكـون قولـه تبعاً لقـوله ، وعلمـه تبعـاً لأمزه ، فلهـذا كان الصحـابة ومن سبـك سبيلهم من التابعـين لهم بـإحسـان وأئمـة المسلمـين ، فلهـذا كـان الصحـابـة ومن سلك سبيلهم من التـابعـين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ، فلهـذا لم يكن أحد منهم يعـارض النصوص بمعقـوله ولا يؤسس ديناً غير ما جاء به الرسـول ، وإذا أراد معرفـة شيء من الدين والكـلام فيه

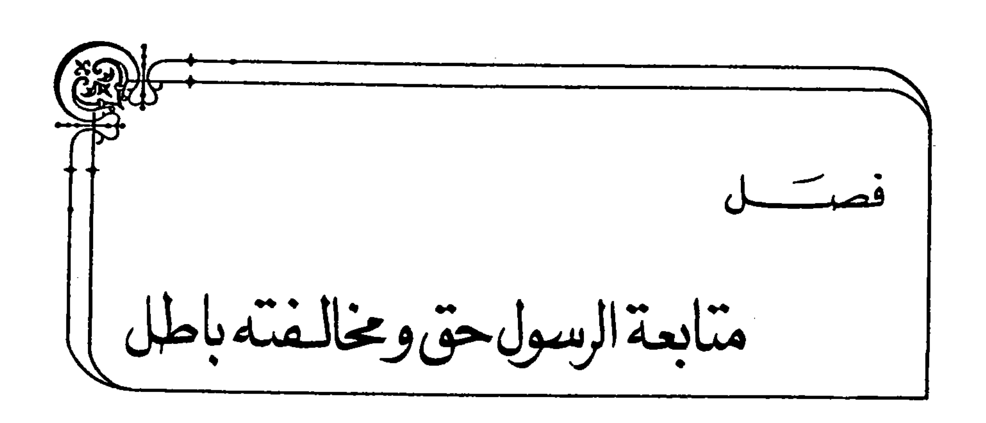
---

(١) سورة الأنبياء ٢٧ ـ ٣٠. (٢) سورة الحجرات ١٠ .

نـظر فيها قـاله الله والـرسول ، فمنـه يتعلم وبـه يتكلم وفيـه ينـظر ويتفكـر ، وبـه يستدل . فهذا أصل أهل السنة وأهل البـدع ، لا يجعلون اعتمادهم ف البـاطن ، ونفس الأمـر عـلى مـا تلقـوه عن الـرسـول ، بـل عـلى مـا رووه أو ذاقـوه ، ثم إن وجـدوا السنة تـوافقه وإلا لم يبـالوا بـذلك ، فـإذا وجدوهـا تخالفـه أعرضـوا عنهـا تفويضاً أو حرفوها تأويلاً .

فهـذا هو الفـرقان بـين أهل الإيمـان والسنة ، وأهـل النفاق والبـدعة ، وإن كـان هؤلاء لهم من الإيمـان نصيب وافـر من اتبـاع السنـة ، لكن فيهم من النفـاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي الله ورسوله ، وخـالفوا الله ورسـوله ، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ، ولو علموا لما قالوه لم يكـونوا منـافقين ، بـل ناقصي الإيمان مبتدعين وخطؤهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه ، وإن نقصوا به .





فصـــل

متابعة الرسول حق ومخالفته باطل

وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل ، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس ، **﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾** ، وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطناً وظاهراً ، فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق في نقيضه ، وحينئذ فمن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلاً ، والاعتقاد الباطل لا يكون علماً وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه ، فمن نهى عنه فهو نهي عن العدل ، ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم ، فإن ضد العدل الظلم ، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلاً وظلماً ظناً وما تهى الأنفس ، وهو لا يخرج عن قسمين أحسنهما : أن يكون كائن شرعاً لبعض الأنبياء ثم نسخ ، وأدناهما : أن يكون ما شرع قط بل يكون من المبدل ، فكل ما خالف حكم الله ورسوله فإما شرع منسوخ ، وإما شرع مبدل ما شرعه الله بل شرعه شارع بغير إذن من الله . كما قال : **﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾**(١) لكن هذا وهذا قد يقعان في خفي الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها ، استفرغوا فيه وسعهم في طلب الحق ويكون لهم من الصواب . والاتباع ما يغمر ذلك ، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك ، ولم يكن منهم مثل هذا في جلي الأمور وجليلها ، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهراً بينهم ، فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول وهم

---

(١) سورة الشورى ٢١ .

معتصمون بحبل الله ، يحكمون الرسول فيما شجر بينهم ، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله فضلاً عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم ، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف .

وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين ، يغفر الله لهم خطاياهم ويثيبهم على اجتهادهم .

معيار المفاضلة بين القرون

وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلاً يعملها في ذلك الزمان ، لأنهم كانوا يجدون من يعينهم على ذلك ، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يعينهم على ذلك ، لكن تضعيف الأجر لهم في أمور لم يضعف للصحابة ، لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ، ولا يكون فاضلهم كفاضل الصحابة ، فإن الذي سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد ومعاداة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجبه قبل أن تنتشر دعوته وتظهر كلمته وتكثر أعوانه وأنصاره وتنتشر دلائل نبوته ، بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين وإنفاق المؤمنين أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه ، في مثل ذلك الحال أمر ما بقي يحصل مثله لأحد ، كما في الصحيحين عنه ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال : « خير القرون قرني الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

فجملة القرن الأول أفضل من القرن الثاني ، والثاني أفضل من الثالث ، والثالث أفضل من الرابع ، لكن قد يكون في الرابع من هو أفضل من بعض

الثالث وكذلك في الثالث مع الثاني ، وهل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ، هذا فيه نزاع ، وفيه قولان حكاهما القاضي عياض وغيره ، ومن الناس من يفرضها في مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز ، فإن معاوية له مزية الصحبة والجهاد مع النبي ﷺ ، وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد والخوف من الله تعالى ، وبسط هذا له موضع آخر .

عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلاً

والمقصود هنا أن من خالف الرسول فلا يعدو أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، كما قال تعالى في المشركين الذين يعبدون اللات والعزى : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾[1] .

وقال في الذين يخبرون عن الملائكة أنهم إناث : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾[2] وهم جعلوهم إناثاً كما قال : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً**﴾[3] وفي القراءة الأخرى : ﴿ **عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ وهؤلاء قال عنهم : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن** ﴾ لأنه خبر محض ليس فيه عمل وهناك : وما تهوى الأنفس لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها فهناك عبادة وعمل يهوى أنفسهم فقال : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** ﴾ والذي جاء به الرسول كما قال : ﴿ **والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى**﴾[4]وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس ، فإن

---

(١) سورة النجم ٢٣ .
(٢) سورة النجم ٢٨ ـ ٣١ .
(٣)ضسورة الزخرف ١٩ .
(٤) سورة النجم ١ ـ ٥ .

كان ممن يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها ، كان غايته الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً كاحتجاجهم بقياس فاسد ، أو نقل كاذب أو خطاب ألقى إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من إلقاء الشيطان .

وهذه الثلاثة هي عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلاً ، أما أن يحتج بأدلة عقلية ويظنها برهاناً وأدلة قطعية . وتكون شبهات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ومعاني متشابهة لم يميز بين حقها وباطلها ، كما يوجد مثل ذلك في جميع ما يحتج به من خالف الكتاب والسنة ، إنما يركب حججه من ألفاظ متشابهة ، فإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل وهذه هي الحجج العقلية ، وإن تمسك المبطل بحجج سمعية فإما أن تكون كذباً على الرسول ، أو تكون غير دالة على ما احتج بها أهل البطول ، فالمنع إما في الإسناد وإما في المتن ، ودلالته على ما ذكر وهذه الحجة السمعية . هذه حجج أهل العلم الظاهر .

مرتبة أهل الذوق

وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة ، فإن أهل الحق من هؤلاء لهم (إلهامات صحيحة) مطابقة ، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن لم يكن في أمتي أحد فعمر » .

وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنها تجلي لهم أمور صادقة .

وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله . صم قرأ قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾[1] .

وقال بعض الصحابة : أظنه والله الحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم .

---

(١) سورة الحجرات ٧٥.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها » وفي رواية : « فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي » فقد أخبر أنه يسمع الحق ويبصر به .

وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه .

وقال ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده » .

وقال الله تعالى : ﴿نور على نور﴾[1] الإيمان مع نور القرآن . وقال تعالى : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾[2] وهو المؤمن على بينة من ربه . ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن ، شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان ، وهذا القدر مما أقر به حذاق النظار لما تكلموا في وجوب النظر وتحصيله للعلم ، فقيل لهم: أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر . كما قال الشيخ الملقب بالكبيرى (للرازي) ورفيقه وقد قالا له : يا شيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين . فقال : نعم . فقالا : كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذكر شيئاً أفسدته ، وكلما ذكرت شيئاً أفسده . فقال : هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلا يعجبان من ذلك ويكرران الكلام ، وطلب أحدهما أن يحصل له هذه الواردات فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له وكان من المعتزلة النفاة .

العلم الضروري والعلم النظري

فبين له أن الحق مع أهل الإثبات وأن الله سبحانه فوق سمواته ، وعلم ذلك بالضرورة . ورأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين أحمد بن محمد

---

(١) سورة النور ٣٥.

(٢) سورة هود ١٧ .

بن خلف المقدسي ، وذكر أن الشيخ الكبيرى حكاها له وكان قد حدثني بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه ، وكلام المشايخ في مثل هذا كثير ، وهذا الوصف الذي ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فإنهم قد قسموا العلم إلى ضروري ونظري ، والنظري مستند إلى الضروري ، والضروري هو العلم الذي يلزم نفس المخلوق لزوماً ما يمكنه معه الانفكاك عنه .

هذا حد القاضي أبي بكر الطيب وغيره فخاصته أنه يلزم النفس لزوماً لا يمكن مع ذلك دفعه ، فقال لهم : علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس ، وهو علم يلزم النفس لزوماً لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه ، وقال : واردات لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به ، فالواردات تحصل بهذا وهذا ، وهذا قد أقر به كثير من حذاق النظار متقدميهم كالكيا الهراسي ، والغزالي وغيرهما ، ومتأخريهم كالرازي والآمدي ، وقالوا : نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضروري بما يحصل لنا بالنظر هذا لا يدفعه ، لكن إن لم يكن علماً ضرورياً فلا بد له من دليل ، والدليل يكون مستلزماً للمدلول عليه بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه .

تلبيس الشيطان على بعض الزهاد

قالوا : فإن كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذي حصل له لزم دفع شيء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل وإن لم يكن كذلك ، فهذا هوس لا يلتفت إليه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن هذا الجنس واقع ، لكن يقع أيضاً ما يظن أنه منه كبير أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل ، كما يقع في الأدلة العقلية والسمعية ، فمن هؤلاء من يسمع خطاباً أو يرى من يأمره بقضية ، ويكون ذلك الخطاب من الشيطان ، ويكون ذلك الذي يخاطبه الشيطان ، وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب .

ورجال الغيب : هم الجن ، وهو يحسب أنه إنسي ، وقد يقول له أنا الخضر أو إلياس ، بل أنا محمد أو إبراهيم الخليل أو المسيح أو أبو بكر أو عمر أو أنا الشيخ فلان أو الشيخ فلان ممن يحسن بهم الظن ، وقد يطير به في الهواء ، أو يأتيه بطعام أو شراب أو نفقة ، فيظن هذا كرامة بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجال الغيب أو من الملائكة ، ويكون ذلك شيطاناً ألبس عليه ، فهذا ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة ، كما أعرف من الغلط في السمعيات والعقليات ، هؤلاء يتبعون ظناً لا يغني من الحق شيئاً ، ولو لم يتقدموا بين يدي الله ورسوله ، بل اعتصموا بالكتاب والسنة ، لتبين لهم أن هذا من الشيطان ، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجده وما يجده محبوباً إليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة فيكون متبعاً لهواه بلا ظن ، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الأنفس ، وهؤلاء إذا طلب من أحدهم حجة ذكر تقليده لمن يحبه من آبائه وأسلافه كقول المشركين : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[1]، وإن عكسوا احتجوا بالقدر ، وهو أن الله أراد هذا وسلطنا عليه فهم يعملون بهواهم وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم كالملوك المسلطين ، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه ، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه ، وأن يستعينوا بالله فيقولون : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ لا حول ولا قوة إلا بالله لا يعتمدون على ما أوتوه من القوة والتصرف والحال ، فإن هذا من الجد ، وقد كان النبي ﷺ يقول عقب الصلاة وفي الاعتدال بعد الركوع : « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

الذوق والوجد

فالذوق والوجد هو يرجع إلى حب الإنسان ووجده بحلاوته وذوقه وطعمه ، وكل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد ، فإن لم يكن ذلك بسلطان من الله وهو ما أنزله على رسوله ﷺ كان صاحبه متبعاً لهواه بغير

---

(١) سورة الزخرف ٢٣ .

هـدي ، وقـد قـال الله تعـالى : ﴿ **ومن أضـــل ممن اتبـع هـــواه بغـير هـــدي من الله** ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ **وما لكم ألا تأكلوا ممـا ذكر اسم الله عليـه وقد فصـل لكم مـا حرم عليكم إلا مـا اضطررتم إليـه وإن كثيراً ليضلون بـأهوائهم بغـير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين** ﴾[2].

وكـذلـك من اتبـــع مـا يـــرد عليـه من الخـــطاب . أو مـا يـــرد من الأنـوار والأشخاص الغيبية ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنـة ، فإنمـا يتبع ظنـاً لا يغني من الحق شيئاً .

فليس في المحدثين الملهمـين أفضل من عمـر ، كما قـال ﷺ : « أنه قـد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر منهم » .

وقـد وافق عمر ربـه في عدة أشيـاء ، ومع هـذا فكـان عليـه أن يعتصم بمـا جاء به الرسول ولا يقبل ما يـرد عليه حتى يعـرضه عـلى الرسـول ، ولا يتقدم بـين يـدي الله ورسولـه بل يجعـل مـا ورد عليـه ، وكـان إذا تبـين لـه من ذلـك أشيـاء خـلاف ما وقـع له فيـرجع إلى السنـة ، وكان أبـو بكر يبـين له أشيـاء خفيت عليه فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه ، كـما جرى يـوم الحديبيـة ، ويوم مـات الرسول ، ويـوم ناظـره من مانـع الزكـاة وغـيرذلـك، وكـانت المرأة تـرد عليه مـا يقوله وتـذكر الحجـة من القرآن ، فيـرجع إليهـا كما جـرى في مهور النسـاء، ومثل هذا كثير .

فكـل من كان من أهـل الإلهـام والخـطاب والمكـاشفـة ، لم يكن أفضـل من عمـر ، فعليـه أن يسلك سبيله في الاعتصـام بـالكتـاب والسنة تبعـاً لمـا جـاء بـه الرسول ، لا يجعـل ما جـاء به الـرسول تبعـاً لما ورد عليـه ، وهؤلاء الذين أخـطؤا

---

(١) سورة القصص ٥٠ .   (٢) سورة الأنعام ١١٩ .

وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم وظنوا أن ذلك يغنيهم عن اتباع العلم المعقول .

وصار أحدهم يقول : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت ، فيقال له : أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق ولولا النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين وإما من اليهود والنصارى ، وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحي من الله ، ومن لك أنه ليس من وحي الشيطان .

وحي الرحمن ووحي الشيطان

والوحي وحيان : وحي من الرحمن ، ووحي من الشيطان . قال تعالى : **﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾**[1] ، وقال تعالى : **﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾**[2]، وقال تعالى : **﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾**[3] .

وقد كان المختار بن أبي عبيد من هذا الضرب ، حتى قيل لابن عمر وابن عباس قيل لأحدهما : أنه يقول أنه أوحى إليه فقال : وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . وقيل للآخر : إنه يقول أنه ينزل عليه فقال : **﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾**[4] فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيماني القرآني النبوي الشرعي أعظم من حاجة غيرهم ، وهؤلاء لهم حسيات يرونها ويسمعونها ، والحسيات يضطر إليها الإنسان بغير اختياره ، كما قد يرى الإنسان أشياء ويسمع أشياء بغير اختياره ، كما أن النظار لهم قياس ومعقول ، وأهل السمع لهم أخبار منقولات ، وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم ؛ الحس ، والخبر ، والنظر ، وكل انسان من هذه الثلاثة في بعض الأمور ، لكن يكون

---

(١) سورة الأنعام ١٢١ .
(٢) سورة الأنعام ١١٢ .
(٣) سورة الشعراء ٢٢١ .
(٤) سورة الشعراء ٢٢١ .

بعض الأنـواع أغلب على بعض النـاس في الـدين وغـير الـدين ، كـالـطلب فـإنـه تجـربات وقيـاسات وأهله منهم من يغلب عليـه للتجـربـة ، ومنهم من يغلب عليـه القيـاس ، والقيـاس أصله التجـربـة لا بـد فيهـا من قيـاس ، لكن مثـل قيـاس العـاديات لا يعـرف فيه العلة والمنـاسبـة ، وصـاحب القيـاس من يستخـرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها والعقل خـاصة القيـاس والاعتبار والقضـايا الكليـة ، فلا بـد له من الحسيـات التي هي الأصل ليعتبـر لها ، والحس إن لم يكن مـع صـاحب عقل وإلا فقد يغلط .

والنـاس يقولـون غلط الحس ، والغلط تارة من الحس وتـارة من صـاحبـه ، فإن الحس يرى أمـراً معيناً فيـظن صاحبـه فيه شيئـاً آخر فيؤتى من ظنـه فلا بـد له من العقل .

ولهذا النائم يـرى شيئاً وتلك الأمـور لها وجـود وتحقيق ، ولكن هي خيالات وأمثلة فلما عـزب ، ظنها الـرائي نفس الحقائق كـالذي يـرى نفســه في مكـان آخـر يكلم أمواتاً ويكلمونه ، ويفعل أموراً كثيرة وهو في النـوم ، يجزم بـأنه نفسـه الذي يقـول ويفعـل ، لأن عقله عـزب عنـه ، وتلك الصـورة التي رآهـا مثـال صـورتـه وخيالها ، لكن غاب عقله عن نفسه حتى ظن أن ذلك المثال هـو نفسه ، فلما ثـاب إليـه عقله علم أن ذلك خيـالات ومثالات ، ومن النـاس من لا يغيب عقله ، بـل يعلم في المنام أن ذلك في المنام .

وهـذا كالـذي يرى صـورتـه في المـرآة أو صـورة غيـره ، فـإذا كـان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هي الشخص حتى أنـه يفعل بـه ما يفعـل بالشخص ، وهذا يقع للصبيـان والبله ، كما يخيـل لأحدهم في الضـوء شخص يتحرك ويصعـد وينزل فيظنونه شخصـاً حقيقة ، ولا يعلمـون أنه خيـال فالحسن أحس صحيحـاً لم يغلط ، لكن معـه عقل لم يميـز بين هـذا العين والمثـال ، فإن العقـل قد عقـل قبل هذا أن مثل هـذا يكون مثـالاً ، وقد عقـل لوازم الشخص بعينـه وأنه لا يكـون في

الهـواء ولا في المرآة ولا يكـون بدنـه في غير مكـانه وأن الجسم الـواحد لا يكـون في مكانين .

غلط أهل المكاشفات

وهؤلاء الـذين لهم مكاشفات ومخاطبـات يـرون ويسمعـون مـا لـه وجـود في الخارج ، وما لا يكـون موجـوداً إلا في أنفسهم كحال النـائم ، وهذا يعـرفهه كـل أحد . ولكن قد يرون في الخارج أشخاصاً يراها عيـاناً ، ومـا في خيال الإنسـان لا يـراه غيره ويخـاطبهم أولئك الأشخـاص ويحملونهم ويـذهبـون بهم إلى عـرفـات ، فيقفون بها وإما إلى غير عـرفات ، ويـأتوهم بـذهب وفضة وطعـام ولباس وسـلاح وغـير ذلك يخـرجون إلى النـاس ويأتـونهم أيضاً بمن يـطلبونـه ، مثل من يكـون لـه إرادة في امرأة أو صبي فيأتونه بذلك ، إمـام محمولاً في الهـواء وإما بسعي شـديد ، ويخبـر أنه وجـد في نفسه من البـاعث القوي مـا لم يمكنه المقـام معه ، أو يخبـر أنـه سمع خطابـاً ، وقد يقتلون لـه من يريـد قتله من أعدائـه أو يمرضـونه ، فهـذا كله مـوجود كثيـراً لكن من الناس من يعلم أن هـذا من الشيطان ، وأنـه من السحر ، وأن ذلـك حصل بمـا قالـه ويعلمه من السحـر ، ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن ويقول هذا كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا ، ومنهم من يـظن أولئك الأشخـاص إلا الآدميين أو ملائكة ، فإن كانوا غير معروفين .

قال : هؤلاء رجال الغيب ، وإن يسموا قالوا : هذا هـو الخضر ، وهذا هـو إلياس ، وهذا هو أبو بكر وعمر ، وهذا هو الشيخ عبد القـادر أو الشيخ عـدي أو الشيـخ أحمد الـرفاعي أو غـير ذلـك ، ظن أن الأمـر كـذلـك فهنـا لم يغلط ، لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صور هؤلاء .

وكثـير من هؤلاء يظن أن النبي ﷺ نفسـه أو غيره من الأنبيـاء أو الصالحـين يأتيه في اليقظة ، ومن يرى ذلـك عند قبـر النبي ﷺ أو الشيخ وهـو صادق في أنـه إياه من قال إنه النبي أو الشيخ أو قيـل له ذلـك فيه ، لكن غلط حيث ظن صـدق أولئك ، والذي له عقل وعلم يعلم أن هـذا ليس هو النبي ﷺ تـارة لما يـراه منهم

من مخالفة الشرع ، مثل أن يأمروه بما يخالف أمره الله ورسوله ، وتارة يعلمه أن النبي ﷺ ما كان يأتي أحداً من أصحابه بعد موته في اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لي وتارة يعلم أن الميت لم يقم من قبره وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا ، وهذا يقع كثيراً لكثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة رفيقة فلان ، وقد يقولون هو معناه يشكل وقد يقولون روحانيته .

ومن هؤلاء من يقول : إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلني ، ولا فلاناً يحضرني ، فإني أنا أغسل نفسي ، فإذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن ، ويكون ذلك جنياً ، قد قال لهذا الميت إنك تجيء بعد الموت ، واعتقد ذلك حقاً فإنه كان في حياته يقول له أموراً ، وغرض الشيطان أن يضل أصحابه ، وأما بلاد المشركين كالهند فهذا كثيراً ما يرون الميت بعد موته جاء وفتح حانوته ورد ودائع وقضى ديوناً ودخل إلى منزله ثم ذهب ، وهم لا يشكُّون أنه الشخص نفسه ، وإنما هو شيطان تصور في صورته .

(**ومن هؤلاء**) من يكون في جنازة أبيه أو غيزه ، والميت على سريره وهو يراه آخذاً يمشي مع الناس بيد ابنه وأبيه قد جعل شيخاً بعد أبيه ، فلا يشك ابنه أن أباه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره ، وإنما كان شيطاناً ويكون مثل هذا الشيطان قد سمي نفسه خالداً وغير خالد ، وقال لهم إنه من رجال الغيب ، وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين ، ويسمونه خالداً الغيبي وينسبون الشيخ إليه فيقولون : محمداً الخالدي ونحو ذلك .

تكليف الجان

(**فإن الجن مأمورون ومنهيون**) كالإنسا وقد بعث الله الرسل من الإنس إليهم وإلى الإنس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل كما قال تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا**

كافرين ﴾[1] وهذا بعد قوله : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله** ﴾[2] قال غير واحد من السلف : أي كثير من أغويتم من الإنس وأضللتموهم .

وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس .

وعن محمد بن كعب قال : هو الصحابة في الدنيا ، وقال ابن السائب : استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم ، واستمتاع الجن بالإنس إن قالوا قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا ، فيزدادون شرفاً في أنفسهم وعظماً في نفوسهم ، وهذا كقوله : ﴿ **وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾[3] قلت : الاستمتاع بالشيء هو أن يتمتع به ، ينال به ما يطلبه ويريده ويهواه ، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم لبعض ، كما قال : ﴿ **فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة** ﴾[4]، ومن ذلك الفواحش كاستمتاع الذكور بالذكور والإناث بالإناث .

ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة ، كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم ، ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس ، ومنه قوله : ﴿ **ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره** ﴾[5]، وكان من السلف من يمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته ، ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقه . ولهذا قال الفقهاء : أعلى المتعة خادم وأدناها كسوة يجزى فيها الصلاة .

وفي الجملة استمتاع الإنس الجن والجن بالإنس ، يشبه استمتاع الإنس بالإنس . قال تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[6] وقال

---

(1) سورة الأنعام ١٣٠ .
(2) سورة الأنعام ١٢٨ .
(3) سورة الجن ٦ .
(4) سورة النساء ٢٤ .
(5) سورة البقرة ٢٣٦ .
(6) سورة الزخرف ٦٧ .

تعالى : ﴿ **وتقطعت بهم الأسباب**﴾[1]. قال مجاهد : هي المودات التي كانت لغير الله . وقال الخليل : ﴿ **إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً**﴾[2] قال تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾[3] فالمشرك يعبد ما يهواه ، واتبّاع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه ، وقد وقع في الإنس والجن هذا كله .

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم ، فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه ، والإنس تطيع الجن فتارة يسجد له وتارة يسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة ، وكذلك الجنيات منهم من يريد من الإنس الذي يخدمنه ما يريد نساء الإنس من الرجال ، وهذا كثير في رجال الجن ونسائهم . فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسي وقد يفعل ذلك بالذكران .

صراع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة

(**وصراع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة**) تارة يكون الجني يحب المصروع فيصرعه ليتمتع به ، وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل ، وتارة يكون الإنسي آذاهم إذا بال عليهم ، أو صب عليهم ماء حاراً ، أو يكون قتل بعضهم . أو غير ذلك من أنواع الأذى ، هذا أشد الصرع ، وكثيراً ما يقتلون المصروع ، وتارة يكون بطريق العبث به ، كما يعبث سفهاء الإنس بأبناء السبيل .

صور استمتاع الأنس بالجن

ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم في الأخبار بالأمور الغائبة كما يخبر الكهان ، فإن في الإنس من له غرض في هذا لما يحصل به من الرياسة والمال

---

(١) سورة البقرة ١٦٦ . (٢) سورة العنكبوت ٢٥ . (٣) سورة الجاثية ٢٣ .

وغير ذلك ، فإن كان القول كفاراً كما كانت العرب ، لم تبال بأن يقال أنه كاهن كما كانان العرب كهاناً . وقدم النبي ﷺ المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان فإنه لا يخدم الإنسي بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسي بأن يطيعه الإنسي في بعض ما يريده ، إما في شرك ، وإما في فاحشة ، وإما في أكل حرام ، وإما في قتل نفس بغير حق ، فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولهم لذة في الشر والفتن يحبون ذلك ، وإن لم يكن فيه منفعة لهم ، وهم يقولون بأمر السارق أن يسرق وقذهب إلى أهل المال ، فيقولون فلا سرق متاعكم ، ولهذا يقال : القوة الملكية والبهيمية والسبعية والشيطانية ، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح ، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذي ، وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه ، وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة والغضب خلقا لمصلحة ومنفعة ، لكن المذموم هو العدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا ينفعه فيه ويحب ذلك ، كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا ينتفع بزوال النعمة عن المسحود ، لكن يبغض ذلك وقد يكون بغضه لفوات غرضه وقد لا يكون .

ومن استمتاع الإنس بالجن : استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة ، فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدلونه على كنز وغيره ، واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية .

ومن استمتاع الإنس بالجن : استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش ، فتارة يتمثل الجني في صورة الإنسي ، فإذا استغاث به

بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه ، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به : يا سيدي فلان فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه . ثم إن الشيخ يقول : نعم . ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل ، يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذي أجابه وهو الذي فعل ذلك ، حتى أن تابع الشيخ قد يكون يده في إناء يأكل فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجني يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء ، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه ، ويكون بينهما مسافة شهر والشيخ موضعه ويده لم تطل ، ولكن الجني مثل للشيخ ومثل الجني وخيله ، وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله ، أو علة في النساء أو غير ذلك ، فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق ، فيقول الشيخ : ذهب لكم كذا وكذا ، ثم إن كان صاحب المال معظماً وأراد أن يدله على سرقته مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال ، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال ، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة لمال ، ولا يكون عليه لأن الذي سرق المال معه أيضاً حتى يخدمه ، والجن يخاف بعضهم من بعض ، كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً ، فإذا دل الجني عليه جاء إليه أولياء السارق فآذوه ، وأحياناً لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه ، كما يصيب معرف اللصوص من الإنس تارة يعرف السارق ولا يعرف به إما لرغبة ينالها منه ، وإما لرهبة وخوف منه ، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه ، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض .

(**والجن مكلفون كتكليف الإنس**) ومحمد ﷺ مرسل إلى الثقلين الجن والإنس ، وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين (**وأما مؤمنهم**)

ففيهم قولان ، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضاً ويدخلون الجنة ، وقد روى أنهم يكونون في ربضها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس ، عكس الحال في الدنيا . وهو حديث رواه الطبراني في معجمه الصغير يحتاج النظر في إسناده وقد . وقد احتج ابن أبي ليلى وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا** ﴾[1] وقد ذكر الجن والإنس الأبرار والفجار في الأحقاف والأنعام . واحتج الأوزاعي وغيره بقوله تعالى : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾[2] وقد قال تعالى في الأعراف : ﴿ **أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس أنهم كانوا خاسرين . ولكل درجات مما عملوا** ﴾[3] وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة وقوله : ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة** ﴾[4] ثم قال : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** ﴾[5] قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علواً ، ودرجات أهل النار تذهب سفلاً ، وقد قال تعالى عن قول الجن : ﴿ **منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا** ﴾[6] وقالوا: ﴿ **وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا** ﴾[7] ففيهم الكفار والفساق والعصاة ، وفيهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما في الإنس ، وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس ، فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ، والفساق مع الفساق ، وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهد والبدع .

استخدام الإنس الجان

واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء . منهم من

---

(١) سورة الأحقاف ١٩ .
(٢) سورة الرحمن ٧٤.
(٣) سورة الأحقاف ١٨ ـ ١٩ .
(٤) سورة الأحقاف ١٦ .
(٥) سورة الأحقاف ١٩ .
(٦) سورة الجن ١١ .
(٧) سورة الجن ١٤ ـ ١٥ .

يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم ، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين وإنما هو من أفعال الشياطين ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة ، إما إحضار ماله أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك . والنوع الثالث : أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله كما يستعمل الإنس في مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله ، كما يأمر الإنس وينهاهم ، وهذه حال نبينا ﷺ ، وحال من اتبعه واقتدى به من أمته ، وهم أفضل الخلق فإنهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله ، وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله إذ كان نبينا محمد ﷺ مبعوثاً بذلك إلى الثقلين الإنس والجن ، وقد قال الله له : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾[1] وقال : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[2] «وعمر رضي الله عنه لما نادى يا سارية الجبل . قال : إن لله جنوداً يبلغون صوتي » وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحي الجن ، فجنود الله بلغوا صوت عمر إلى سارية وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر وإلا نفس صوت عمر لا يصل نفسه في هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه ، فيقول : يا فلان فيعان على ذلك . فيقول الواسطة بينهما : يا فلان وقد يقول لمن هو بعيد عنه : يا فلان احبس الماء تعال إلينا وهو لا يسمع صوته ، فيناديه الواسطة بمثل ذلك : يا فلان احبس الماء ارسل الماء إما بمثل صوت الأول إن كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأي صوت ، كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه ، وهذا حكاية كان عمر مرة قد أرسل جيشاً فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر . فقال عمر : من أين لكم هذا ؟ قالوا : شخص صفته كيت وكيت فأخبرنا . فقال عمر : ذاك أبو

---

(١) سورة يوسف ١٠٨ . (٢) سورة آل عمران ٣١ .

الهيثم . يريد الجن وسيجيء بريد الانسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج فيرى الناس يتحدثون به ، فإن الجن تسمعه وتخبر به الناس والذي يستخدمون الجن في المباحات يشبه استخدام سليمان ، لكن أعطى ملكاً لا ينبغي لأحد بعده وسخرت له الإنس والجن ، وهذا لم يحصل لغيره والنبي ﷺ لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال . « فأخذته فذعته حتى سال لعابه على يدي وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد ثم ذكرت دعوة أخي سليمان فأرسلته » (**فلم يستخدم**) الجن أصلاً لكن دعاهم إلى الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن وبلغهم الرسالة وبايعهم كما فعل بالإنس . والذي أوتيه ﷺ أعظم مما أوتيه سليمان ، فإنه استعمل الجن والانس في عبادة الله وحده وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يرجع إليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ، واختار أن يكون عبداً رسولاً على أن يكون نبياً ملكاً ، فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد ، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين ، وكثير ممن يرى هذه العجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة ، وما لأولياء الشيطان من ذلك من السحرة والكهان والكفار من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والضلال من الداخلين في الاسلام ، جعلوا الخوارق جنساً واحداً وقالوا كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعوة النبوة والاستدلال بها والتحدي بمثلها .

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك وأن يقيض له من يعارضه ، ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لأعجزه الله ، فخاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثل ما أتى به النبي كان معتاداً للناس قالوا : إن عجز الناس عن المعارضة خرق عادة فهذه هي المعجزات عندهم ، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا

المعجزات هي خرق العادة ، لكن أنكروا كرامات الصالحين ، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس الشعبذة والحيل ، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك ، وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي . قالوا : فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحاً بهذا الإجماع وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها تكون للسحرة ما هو مثلها ويناقضوا في ذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع .

انخداع العامة بالسحرة والكهان

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة وللكهان ، وما يفعله الشياطين من العجائب ، وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح ، فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة فيقوى قلبه بأن طريقته هي طريقة الأولياء ، وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ثم يقولون : الوالي إذا تولى لا يعترض عليه ، فمنهم من يراه مخالفاً لما علم بالاضطرار من دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة وأكل الخبائث كالخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك ، وفعل الفواحش والفحش والتفحش في المنطق وظلم الناس وقتل النفس بغير حق والشرك بالله وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولي من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلاً من الله تعالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين يضل به الناس ويغويهم .

(ودخلت) الشياطين في أنواع من ذلك ، فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم : أنا أبو بكر الصديق وأنا أتوبك لي ، وأصير شيخك وأنت تتوب الناس لي ويلبسه ، فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدة من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعره في النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً ، وتارة يقول أنا الشيخ فلان فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره .

وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحي أو الميت ، فيأتونه في صورة ذلك

الشيخ وقد يخلصونه مما يكره ، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه أو أن ملكاً تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذي تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين والملائكة لا تجيب مشركاً ، وتارة يأتون إلى من هو خال في البرية ، وقد يكون ملكاً أو أميراً كبيراً ويكون كافراً ، وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت فيأتيه في صورة إنسي ويسقيه ويدعوه إلى الاسلام ويتوبه فيسلم على يديه ويطعمه ويدله على الطريق ويقول من أنت ؟ فيقول : أنا فلان ويكون في موضع .

(**كما جرى مثل هذا لي**) كنت في مصر في قلعتها وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أني أنا هو أخبر بذلك ملك ماردين ، وأرسل بذلك ملك ماردين إلى ملك مصر رسولاً وكنت في الحبس فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنياً يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاءوا إلى دمشق ، كنت أدعوهم إلى الإسلام ، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك إكرامي ليظن ذاك أني أنا الذي فعلت ذلك .

قضية الخضر

قال لي طائفة من الناس : فلم لا يجوز أن يكون ملكاً ؟ قلت : لا إن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب في ذلك .

(**وكثير من الناس**) رأى من قال إني أنا الخضر ، وإنما كان جنياً ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكاراً لموت الخضر ، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر ، وكلا الطائفتين مخطىء ، فإن الذين رأوا من قال إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون ، والحكايات متواترات لكن أخطئوا في ظنهم أنه الخضر ، وإنما كان جنياً ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى ، فكثيراً ما يأتيهم في كنائسهم من يقول إنه الخضر ، وكذلك اليهود يأتيهم في كنائسهم من

يقول إنه الخضر ، وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع يبين صدق من رأى شخصاً وظن أنه الخضر ، وأنه غلط في ظنه أنه الخضر ، وإنما كان جنياً وقد يقول أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان ، فكل هذا قد وقع والنبي ﷺ قال : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي » قال ابن عباس : في صورته التي كان عليها في حياته وهذه رؤية في المنام ، وأما في اليقظة فمن ظن أن أحداً من الموتى يجي بنفسه للناس عياناً قبل يوم القيامة فمن جهله أتى .

(ومن هنا) ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب كما يظنون أنه أتى إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم ، وهذا مذكور في أناجيلهم ، وكلها تشهد بذلك ، وذاك الذي جاء كان شيطاناً قال أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه ، وذاك الذي جاء كان شيطاناً قال أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه ، ويجوز أن يشتبه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه ، ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه فلا حاجة إلى مجيئة بعد أن رفع إلى السماء .

(وأصحاب الحلاج) لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج ، فيرونه في صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن ، وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي ، وكان يقول انتقل ثم مات . وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن ، وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو ، وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء عليّ أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته ، وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنياً ، فهذا

باب واسع واقع كثيراً ، وكلما كان للقوم أجهل كان عندهم أكثر . ففي المشركين أكثر مما في النصارى وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام ، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون ويصيرون خيراً مما كانوا ، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً .

وقد قال ﷺ : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » وهذا كان كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي ، فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطن . ويقوي بها قلوب كثير من أهل الحق ، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها ، والخير والشر درجات فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه ، وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين ، وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذاك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب . وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير . وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص قد يسمعها أقوام ، فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه ، وإن كانت كذباً ، وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانتهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً ، فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان في قلبه ، والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكليمها وتعطيل المفاسد وتعليلها ، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان ، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب

الإمكان : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾[1].

وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل ، وبدعة ببدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين ، وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها ، وهي بدعة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

ولا ريب أن المعتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ، فإن المعتزلة تقر بخلافة الخلفاء الأربعة ، وكلهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً ، ومنهم من يفضله على أبي بكر وعمر ، ولكن حكى عن بعض متقدميهم أنه قال : فسق يوم الجمل إحدى الطائفتين ولا أعلم عينها . وقالوا إنه قال : لو شهد عليّ والزبير لم أقبل شهادتها لفسق أحدهما لا بعينه ، ولو شهد عليّ مع آخر ففي قبول شهادته قولان . وهذا القول شاذ فيهم والذي عليه عامتهم تعظيم عليّ .

ومن المشهود عندهم ذم معاوية وأبي مُوسى وعمرو بن العاص لأجل عليّ ، ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم بخلاف طلحة والزبير وعائشة فإنهم يقولون إن هؤلاء تابوا من قتاله ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون أبا بكر وعمر ويعظمون الذنوب ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير الإسلام كالخوارج ، ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يترجحون على الخوارج والروافض ، وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس ، فجعلوا من التوحيد نفي الصفات وإنكار الرؤية والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا في ذلك الجهمية وجعلوا من العدل أنه لا يشاء ما يكون ويكون

---

(١) سورة الأحقاف ١٩ .

مـا لا يشاء ، وأنـه لم يخلق أفعال العبـاد ، فنفوا قـدرتـه ومشيئتـه وخلقـه لإثبـات العـدل ، وجعلوا من الرحمـة نفي أمـور خلقهـا لم يعـرفـوا مـا فيهـا من الحكمـة ، وكذلك هم الخـوارج قالـوا بإنفـاذ الوعيـد ليثبتوا أن الـرب صادق لا يكـذب ، إذ كان عندهم قد أخبر بـالوعيـد العام فمتى لم يقـل بذلـك لزم كـذبه وغلطوا في فهم الوعيد ، وكذلك الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر بـالسيف قصدوا بـه طاعـة الله ورسوله كما يقصده الخوارج والزيدية فغلطوا في ذلك .

وكـذلـك إنكـارهم للخـوارق غـير المعجـزات ، قصـدوا بـه إثبـات النبـوة ونصـرهـا ، وغلطوا فيـما سلكـوه ، فـإن النصر لا يكـون بتكـذيب الحق ، وذلـك لكـونهم لم يحققـوا خـاصـة آيـات الأنبيـاء والأشعـريـة مـا ردوه من بـدع المعتـزلـة والـرافضة والجهميـة وغيرهم ، وبينـوا مـا بينـوه من تنـاقضهم وعـظمـوا الحـديث والسنـة ومذهب الجمـاعة ، فحصـل بما قـالـوه من بيـان تنـاقض أصحـاب البـدع للكبار ودرهم ما انتفع به خلق كثير .

فإن الأشعري كان من المعتزلة وبقي على مذهبهم أربعين سنـة يقرأ عـلى أبي عـلي الجبائي ، فلما انتقـل عن مذهبهم كـان خبيراً بـأصولهم وبـالرد عليهم وبيـان تناقضهم ، وأما ما بقي عليه من السنة فليس هو من خصـائص المعتزلـة ، بل هـو من القـدر المشتـرك بينهم وبـين الجهميـة ، وأمـا خصـائص المعتـزلـة فلم يـواهم الأشعـري في شيء منها ، بـل ناقضهم في جميـع أصولهم ، ومـال في مسائـل العدل والأسماء والأحكام إلى مـذهب جهم ونحوه ، وكثـير من الطوائف كـالنجاريـة أتباع حسـين النجار ، والضـرارية أتبـاع ضرار بن عمـر ، ويخالفـون المعتـزلـة في القـدر والأسماء والأحكام وإنقاذ الوعيد .

والمعتزلـة من أبعـد الناس عن طـريق أهل الكشف ، والخـوارق والصـوفيـة يذمونها ويعيبونها ، وكذلك يبالغون في ذم النصارى أكـثر مما يبـالغون في ذم اليهـود وهم إلى اليهـود أقـرب ، كـما أن الصـوفيـة ونحـوهم إلى النصـارى أقـرب ، فـإن النصـارى عندهم عبـادة وزهـد وأخـلاق بـلا معـرفـة ولا بصيـرة فهم ضـالـون ،

واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين ، وروى بإسناد عن أبي روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه ، يقول : فألهمنا دينك الحق وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ، ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم . يقول : إمنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك . قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافاً بين المفسرين ، وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله ، فيعظمون العلم وطريقه ، وهو الدليل والسلوك في طريقه وهو النظر .

وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد ، وطريق أهل الإرادة فهؤلاء يبنون أمرهم على الإرادة ، وأولئك يبنون أمرهم على النظر ، وهذه هي القوة العلمية ، ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا بد أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول .

فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعي ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه بين النظر الشرعي الحق الذي أمر به الشارع وأخبر به ، وبين النظر البدعي الباطل المنهي عنه .

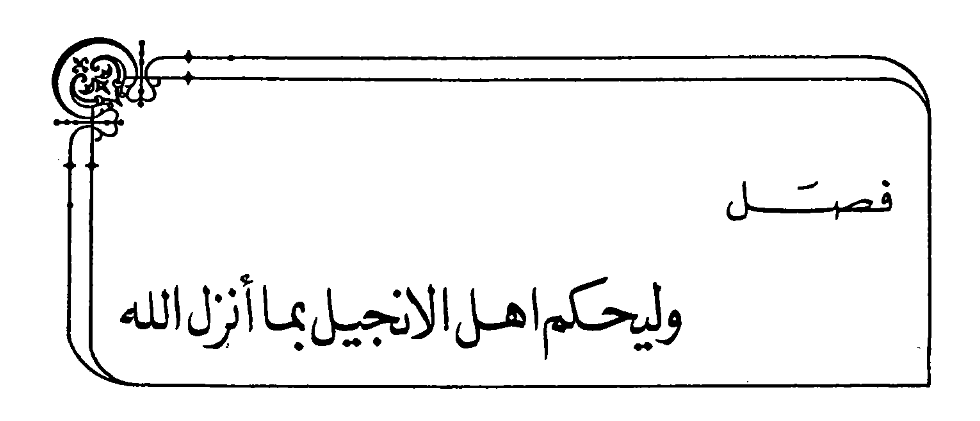
وكذلك الصوفية ، عظموا جنس الإرادة إرادة القلب ، وذموا الهوى وبالغوا في الباب ، ولم يميز كثيراً منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله

ورسوله ، وبين الإرادة البدعية بل أقبلوا على طريق الإرادة طريقة النظر .

وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل في هاتين الجهتين ، ولهذا صار هؤلاء يميل إليهم النصارى ويميلون إليهم ، وأولئك يميل إليهم اليهود ويميلون إليهم ، وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض ، وكذلك بين أهل الكلام والرأي وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض . هذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر إخواننا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين .





فصل

وليحكم اهل الانجيل بما أنزل الله

فإن قيل : فإذا كان في كتب الأناجيل التي عندهم أن المسيح صلب وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم وقال لهم : أنا المسيح ، ولا يقولون إن الشيطان تمثل على صورته ، فالشيطان ليس هو لحم وعظم ؟ وهذه أثر المسامير ونحو هذا الكلام . فأين الإنجيل الذي قال الله عز وجل فيه : ﴿ **وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه**﴾[1] وقال قبل هذا : ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور مصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾[2] وقد قال قبل هذا : ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** ﴾[3] .

وقال أيضاً : ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**﴾[4]، وقال أيضاً : ﴿ **قل يا أهل الكتاب**

---

(١) سورة المائدة ٤٧ .

(٢) سورة المائدة ٤٦ ـ ٤٧ .

(٣) سورة المائدة ٤٣ ـ ٤٤ .

(٤) سورة المائدة ٦٦ .

لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأسَ على القوم الكافرين ﴾[1].

وهذا أمر النبي ﷺ بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم وهو من كان في وقتهم ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم ، وكذلك قوله : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾[2] إخبار عن اليهود الموجودين وأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، وكذلك قوله : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾[3] هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الإنجيل ، ومن لا يؤمر على لسان محمد ﷺ قيل قبل هذا أنه قد قيل ليس في العالم نسخة بنفس ما أنزل الله في التوراة وإنجيل بل ذلك مبدل ، فإن التوراة انقطع تواتره والانجيل إنما أخذت عن أربعة ، ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما في التوراة والإنجيل باطل ليس من كلام الله ، ومنهم من قال : بل ذلك قليل : لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب ، وإنما حرفوا معانيها بالتجويل ، وهذان القولان قال كلا منهما كثير من المسلمين ، والصحيح القول الثالث وهو أن في الأرض نسخاً صحيحة وبقيت إلى عهد النبي ﷺ ، ونسخاً كثيرة محرفة ، ومن قال : إنه لا يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه ، ومن قال جميع النسخ بعد النبي ﷺ حرفت ، فقد قال ما يعلم أنه خطأ ، والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، ويخبر أن فيهما حكمه وليس في القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ .

وإذا كان كذلك فنقول هو سبحانه قال : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾[1] وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح ، فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلها في التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام ، ومعلوم أن هذا الذي في التوراة والإنجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ليس هو مما أنزله الله

---

(١) سورة المائدة ٦٨. (٢) سورة المائدة ٤٧. (٣) سورة المائدة ٦٨.

ومما تلقوه عن موسى وعيسى ، بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما ، وهذا خبر محض من الموجودين بعدهما عن حالهما ليس هو مما أنزله الله عليهما ، ولا هو مما أمرا به في حياتهما ولا مما أخبرا به الناس .

وكذلك : ﴿ لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ وقوله : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾[1] فإن إقامة الكتاب : العمل بما أمر الله به في الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ، ليس هو مما أنزله الله على الرسول ، ولا مما أمر به ولا أخبر به . وقد يقع مثل هذا في الكتب المصنفة ، يصنف الشخص كتاباً ، فيذكر ناسخه في آخره ، عمر المصنف ونسبه وسنه ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف .

الحكمة في تجريد المصاحف

(ولهذا) أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن وأن لا يكتب في المصحف غير القرآن ، فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ، ولا آمين ولا غير ذلك ، والمصاحف القديمة والتي كتبها أهل العلم على هذه الصفة ، وفي المصاحف من قد كتب ناسخها : أسماء السور ، والتخميس ، والتعشير ، والوقف ، والابتداء ، وكتب في آخر المصحف تصديقه ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك ، وليس هذا من القرآن ، فهكذا ما في الإنجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه ومجيئه بعد رفعه إلى الحواريين ليس هو مما قاله المسيح ، وإنما هو مما رآه من بعده الذي أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله .

فإن قيل : فإذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب ، وأنه أتاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الإنجيل والدين فقد دخلت الشبهة .

---

(١) سورة المائدة ٦٦.

قيل : الحواريون وكل من نقل عن الأنبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الأنبياء ، فإن الحجة في كلام الأنبياء ، وما سوى ذلك فموقوف على الحجة إن كان حقاً قبل ، وإلا رد ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي ﷺ من القرآن والحديث يجب قبوله لا سيما المتواتر كالقرآن وكثير من السنن ، وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه ، فإجماعهم معصوم وما تنازعوا فيه رد إلى الله والرسول ، وعمر قد كان أولاً أنكر موت النبي ﷺ حتى رد ذلك عليه أبو بكر ، وقد تنازعوا في دفنه حتى فضل أبو بكر بالحديث الذي رواه ، وتنازعوا في تجهيز جيش أسامة ، وتنازعوا في قتال مانعي الزكاة ، فلم يكن هذا قدحاً فيما نقلوه عن النبي ﷺ والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ولم يشهد أحد منهم صلبه ، فإن الذي صلب إنما صلبه اليهود ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً ، وأولئك اليهود الذين صلبوه ، قد اشتبه عليهم المصلوب بالمسيح .

عقيدة الصَّلب

وقد قيل : إنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس . والأول : هو المشهور وعليه جمهور الناس ، وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب ، لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذي جاء بعد أيام ، وقال أنا المسيح وذاك شيطان ، وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ما تجيء ويدعي أنه نبي أو صالح ويقول : أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطاناً ، وفي ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذي جاءه ، جاء وقال : أنا المسيح جئت لأهديك . فعرف أنه الشيطان . فقال : أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها ، فإن جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك .

فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾[1]

---

(١) سورة النساء ١٥٧ .

وأضاف الخبر عن قتله إلى اليهود بقوله : ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله** ﴾[1] فإنهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة ، إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ، ومن جوز قتله فهو كمن قتله ، فهم في هذا القول كاذبون وهم آثمون وإذا قالوه فخراً لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه ، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه . وقد قال النبي ﷺ : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : يا رسول الله فما بال المقتول . قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » وقوله : ﴿ **وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه** ﴾[2] قيل : من قتله . وقيل منه : أي في شك منه هل صلب أم لا ، كما اختلفوا فيه ، فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : إنه إله ، فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا ، وهم في شك من ذلك ما لهم به من علم ، فإذا كان هذا في الصلب فكيف في الذي جاء بعد الرفع ، وقال إنه هو المسيح .

فإن قيل : كان الحواريون الذين أدركوه قد حصل هذا في إيمانهم فأين المؤمنون به الذين قال فيهم :

﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا** ﴾[3] وقوله: ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾[4] .

قيل : ظن من ظن منهم أنه صلب ، لا يقدح في إيمانه إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب ، لا يقدح في إيمانه فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلاً له ، وقتل النبي لا يقدح في نبوته ، وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء ، وقال تعالى : ﴿ **وكأين من نبي**

---

(١) سورة النساء ١٥٧ .
(٢) سورة آل عمران ٥٥ .
(٣) سورة الصف ١٤ .
(٤) سورة آل عمران ٥٥ .

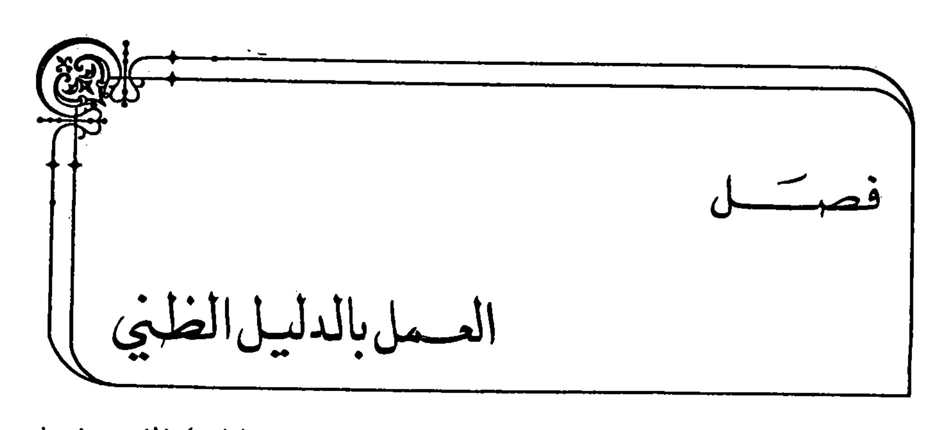
قتل معه ربيون كثير ﴾[1] الآية ، وقال تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾[2] .

وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلمهم ، هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين : أن النبي ﷺ جاءهم في اليقظة ، فإنهم لا يكفرون بذلك ، بل هذا كان يعتقده من هو من أكثر الناس اتباعاً للسنة واتباعاً لها ، وكان في الزهد والعبادة أعظم من غيره ، وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله ، فهذا غلط منه لا يوجب كفره . فكذلك ظن من ظن من الحواريين ، أن ذلك هو المسيح لا يوجب خروجهم عن الإيمان بالمسيح ولا يقدح فيما نقلوه عنه ، وعمر لما كان يعتقد أن النبي ﷺ لم يمت ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه ، لم يكن هذا قادحاً في إيمانه وإنما كان غلطاً ورجع عنه .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٤٤ .



فصل

العمل بالدليل الظني

وقوله تعالى في هذه : ﴿ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾[1]هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم . وكذلك قوله : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[2]، وكذلك قوله : ﴿ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾[3]، وقوله تعالى : ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾[4]، وقوله : ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ﴾[5].

فهذه عدة مواضع يذم الله فيها الذين لا يتبعون إلا الظن ، وكذلك قوله : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخربوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فلله الحجة البالغة ﴾[6] مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم ، وكذلك قوله : ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾[7]، وقوله : ﴿ وإن كثيراً

---

(١) سورة النساء ١٥٧ .
(٢) سورة النجم ٢٣ .
(٣) سورة النجم ٢٨ .
(٤) سورة يونس ٦٦ .
(٥) سورة يونس ٣٥ ـ ٣٦ .
(٦) سورة الأنعام ١٤٨ ـ ١٤٩ .
(٧) سورة الأنعام ١٤٣ .

ليضلون بأهوائهم بغير علم﴾(1)، وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم وعمل بالظن .

وقد ثبت في السنة المتواترة وإجماع الأمة أن الحاكم يحكم بشاهدين ، وإن لم يكن شهود حلف الخصم . وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » .

والاجتهاد في تحقيق المناط مما اتفق المسلمون عليه ولا بد منه ، كحكم ذوي عدل بالمثل في جزاء الصيد ، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه ، ونحو ذلك ، فلا يقطع به الإنسان بل يجوز أن تكون القبلة في غير جهة اجتهاده ، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر ، وأدلة الأحكام لا بد فيها من هذا فإن دلالة العموم في الظواهر قد تكون محتملة للنقيض ، وكذلك خبر الواحد والقياس وإن كان قوم نازعوا في القياس ، فالفقهاء منهم لم ينازعوا في خبر الواحد كالظاهرية ، ومن نازع في هذا وهذا لم ينازع في العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع في العموم والقياس منازع كبعض الرافضة مثل الموسوي ونحوه ، لم ينازع في الأخبار ، فإن الإمامية عمدتهم على ما نقل على الأثنى عشر فلا بد لهم من الرواية ، ولا يوجد من يستغني عن الظواهر والأخبار والأقيسة ، بل لا بد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقيضه وهذا عمل بالظن ، والقرآن قد حرم اتباع الظن . وقد تنوعت طرق الناس في جواز هذا ، فطائفة قالت : لا يتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلاً . وقالوا : إن خبر الواحد يفيد العلم .

وكذلك يقولون في الظواهر ، بل يقولون : نقطع بخطأ من خالفنا وننقض

(1) سورة الأنعام ١١٩ .

حكمه ، كما يقوله داود وأصحابه ، وهؤلاء عمدتهم إنما هو ما يظنونه ظاهراً ، وأما الاستصحاب ، والاستصحاب في كثير من المواضع من أضعف الأدلة وهم في كثير مما يحتجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ بل الظاهر خلافه ، فطائفة قالت : لما قام الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كما متبعين للعلم فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم لا نعمل بالظن ، وهذه طريقة القاضي أبو بكر وأتباعه .

تعريف الفقه

وهنا السؤال المشهور في حد الفقه إنه العلم بالأحكام الشرعية العلمية .

وقال الرازي : العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة قال :

(فإن قلت) الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علماً ؟

(قلت) المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط الحكم ، قطع بوجوب العمل بما أدى إليه ظنه ، فالعلم حاصل قطعاً والظن واقع في طريقه . وحقيقة هذا الجواب أن هنا مقدمتين إحداهما : أنه قد حصل عندي ظن ، والثانية : قد قام الدليل القطعي على وجوب اتباع هذا الظن ، فالمقدمة الأولى وجدانية ، والثانية: قد قام الدليل القطعي على وجوب اتباع هذا الظن ، فالمقدمة الأولى وجدانية ، والثانية عملية استدلالية ، فليس الظن هنا مقدمة في الدليل كما توهمه بعضهم . لكن يقال العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه ، بل الفقه هو ذاك الظن الحاصل بالظاهر ، وخبر الواحد والقياس والأصول يفيد أن العمل بهذا الظن واجب وإلا فالفقهاء لا يتعرضون لهذا ، فهذا الحكم العملي الأصولي ليس هو الفقه ، وهذا الجواب جواب القاضي أبي بكر ، وهو بناه على أصله ، فإنه عنده : كل مجتهد مصيب . وليس في نفس الأمر أمر مطلوب ، ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن ، بل الظنون عنده بحسب الاتفاق .

هل الفقه من قبيل الظنون

وقال الغزالي وغيره ممن نصر قوله : قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر كمثل ذي الشدة إلى قول ، وذي اللين إلى قول ، وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظناً في نفسه فحكم الله في حقه اتباع هذا الظن . وقد أنكر أبو المعالي وغيره عليه هذا القول إنكاراً بليغاً ، وهم معذورون في إنكاره ، فإن هذا أولاً مكابرة ، فإن الظنون عليها أمارات ودلائل يوجب وجودها ترجيح ظن على ظن ، وهذا أمر معلوم بالضرورة ، والشريعة جاءت به ورجحت شيئاً على شيء ، والكلام في شيئين في إتباع الظن وفي الفقه هل هو من الظنون .

أما الأول : فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث ، وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فإنما أمر بالعلم ، وذلك أنه في المسائل الخفية عليه أن ينظر في الأدلة ويعمل بالراجح ، وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عند أمر مقطوع به ، وإن قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده لم يعمل به ، وإذا ظن الرجحان فإنما ظنه لقيام دليل عنده على أن هذا راجح ، وفرق بين اعتقاد الرجحان ، ورجحان الاعتقاد ، وأما اعتقاد الرجحان فقد يكون علماً وقد لا يعمل حتى يعلم يعلم الرجحان . وإذا ظن الرجحان أيضاً فلا بد أن يظنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر ، ورجحان هذا غير معلوم ، فلأن ينتهي الأمر إلى رجحان معلوم عنده فيكون متعباً لما علم أنه أرجح ، وهذا اتباع للعلم لا للظن ، وهو اتباع الأحس .

كما قال : ﴿ **فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾[1]، وقال : ﴿ **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾[2] وقال : ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾[3] فإذا كان أحد الدليلين هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن ، وهذا معلوم .

---

(١) سورة الأعراف ١٤٥ . (٢) سورة الزمر ١٨ . (٣) سورة الزمر ٥٥ .

فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره ، وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين ، وحينئذ فما عمل إلا بالعلم ، وهذا جواب الحسن البصري وأبي وغيرهم ، والقرآن ذم من لا يتبع إلا الظن علم يستند ظنه إلى علم ، فإن هذا أرجح من غيره . كما قال : ﴿ **ما هم به من علم إن يتبعون إلا الظن** ﴾[2] وقال : ﴿ **هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن** ﴾[1].

وهكذا في سائر المواضع يذم الذين إن يتبعون إلا الظن ، فعندهم ظن مجرد لا علم معه ، وهم يتبعونه ، والذي جاءت به الشريعة وعليه عقلاء الناس أنهم لا يعلمون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا ، فيعتقدون الرجحان اعتقاداً عملياً لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت في نفس الأمر ، وهذا كما ذكر النبي ﷺ حيث قال : « ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بنحو مما أسمع » .

التعارض والترجيح

فإذا أتى أحد الخصمين بحجة مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها ، كان الحاكم عالماً بأن حجة هذا أرجح ، فما حكم إلا بعلم ، لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أو لا يحسن أو يبينها مثل أن يكون قد قضاه أو أبرأه وله بينة تشهد بذلك ، وهو لا يعلمها أو لا يذكرها أو لا يجسر أن يتكلم بذلك فيكون هو المضيع بحقه حيث لم يبين حجته ، والحاكم لم يحكم إلا بعلم وعدل ، وضياع حق هذا كان من عجزه وتفريطه لا من الحاكم .

وهكذا أدلة الأحكام ، فإذا تعارض خبران أحدهما : مسند ثابت ، والآخر : مرسل ، كان المسند الثابت أقوئ من المرسل ، وهذا معلوم لأن المحدث بها قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عدله ولا ضبطه كشاهدين زكى

---

(١) سورة النجم ٢٨ . (٢) سورة الأنعام ١٤٨ .

أحدهما ولم يزك الآخر فهذا المزكي أرجح ، وإن جاز أن يكون في نفس الأمر قول الآخر هو الحق ، ولكن المجتهد إنما عمل بعلم وهو علمه برجحان هذا ليس ممن يتبع إلا الظن ، ولم تبين له إلا بعد الاجتهاد التام فيمن أرسل ذلك الحديث ، وفي تزكية هذا الشاهد فإن المرسل قد يكون رواية عدلاً حافظاً كما قد يكون هذا الشاهد عدلاً ، ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوي ، لكن معنا عدم العلم بعدالتهما ، وقد لا يعلم عدالتهما مع تقويتهما ورجحانها في نفس الأمر ، فمن هنا يقع الخطأ في الاجتهاد ، لكن هذا لا سبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لإمكانه ثبوته في نفس الأمر ، فإذا كان لا بد من ترجيح أحد القوانين وجب ترجيح هذا الذي علم ثبوته على ما لا يعلم ثبوته ، وإن لم يعلم انتفاؤه من جهته ، فإنهما إذا تعارضا وكانا متناقضين فإثبات أحدهما هو نفي الآخر ، فهذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفي ذلك ، وذلك المجهول بالعكس . فإذا كان لا بد من الترجيح وجب قطعاً ترجيح المعلوم ثبوته على ما لم يعلم ثبوته ، ولكن قد يقال إنه لا يقطع بثبوته ، وقد قلنا فرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد .

أما اعتقاد الرجحان فهو علم ، والمجتهد ما عمل إلا بذلك العلم ، وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا ، وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن لكن لم يكن . فمن قال الله فيه : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن** ﴾[1] بل هنا ظن رجحان هذا وظن رجحان ذلك ، وهذا الظن هو الراجح ، ورجحانه معلوم فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح ، وهذا معلوم له لا مظنون عنده ، وهذا يوجد في جميع العلوم والصناعات كالطب والتجارة وغيرذلك .

وأما الجواب عن قولهم الفقه من باب الظنون ، فقد أجاب طائفة منهم أبو الخطاب بجواب آخر ، وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر ، وإن جوز أن يكون الأمر بخلافه كقوله : ﴿ **فإن علمتوهن مؤمنات** ﴾[2] .

---

(١) سورة النجم ٢٨ .　　(٢) سورة الممتحنة ١٠ .

والتحقيق أن عنه جوابين : أحدهما أن يقال جمهور مسائل الفقه التي يحتاج إليها الناس ويفتون بها هي ثابتة بالنص أو الإجماع ، وإنما يقع الظن والنزاع في قليل مما يحتاج إليه الناس ، وهذا موجود في سائر العلوم ، وكثير من مسائل الخلاف هي في أمور قليلة الوقوع ومقدرة ، وأما ما لا بد للناس منه من العلم مما يجب عليهم ويحرم ويباح فهو معلوم مقطوع به ، وما يعلم من الدين ضرورة جزء من الفقه ، وإخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ، ولا احترز بهذا القيد أحد إلا الرازي ونحوه ، وجميع الفقهاء يذكرون في كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة والحج واستقبال القبلة ، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة ، وتحريم الخمر والفواحش وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة .

وأيضاً فكون الشيء معلوماً من الدين ضرورة أمر إضافي ، فحديث العهد بالإسلام ، ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية ، فضلاً عن كونه بعلمه بالضرورة ، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي ﷺ سجد للسهو وقضى بالدية على العاقلة ، وقضى أن الولد للفراش وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة ، وأكثر الناس لا يعلمه البتة .

التعريف بالفقه

الجواب الثاني : أن يقال : الفقه لا يكون فقهاً إلا من المجتهد المستدل وهو قد علم أن هذا الدليل أرجح وهذا الظن أرجح ، فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل ، وهذا الظن ليس الفقه قطعة بوجوب هذا العمل أي بما أدى إليه اجتهاده ، بل هذا القطع من أصول الفقه ، والأصولي يتكلم في جنس الأدلة ، ويتكلم كلاماً كلياً ، فيقول : يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحهما ، ويقول أيضاً : إذا تعارض العام والخاص فالخاص أرجح ، وإذا تعارض المسند والمرسل فالمسند أرجح ، ويقول أيضاً العام المجرد عن قرائن التخصيص شموله الإفراد أرجح من عدم شموله ويجب العمل بذلك .

منهج الفقيه في الإستدلال

فأما الفقيه : فيتكلم في دليل معين في حكم معين مثل أن يقول قوله : ﴿ **وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾[1] خاص في أهل الكتاب ومتأخر عن قوله : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات** ﴾[2] وتلك الآية تتناول أهل الكتاب وإن تناولتهم فهذا خاص متأخر ، فيكون ناسخاً ومخصصاً ، فهو يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحريم ، وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً ، وهذا الفقه الذي يختص به الفقهي وهو علم قطعي لا ظني ، ومن لم يعلم كان مقلداً للأئمة الأربعة الذين جوزوا نكاح للكتابيات واعتقاد المقلد ليس بفقه ، ولهذا قال المستدل على أعيانها والفقيه قد استدل على عين الحكم المطلوب والمسئول عنه ، وحيث لا يعلم الرجحان فهو متوقف لأقول له ، وإذا قيل له فقد قال : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾[3] قال هذا نزل عام الحديبية . والمراد به المشركات . فإن سبب النزول يدل على أنهن مرادات قطعاً ، وسورة المائدة بعد ذلك فهي خاص متأخر وذاك عام مقدم ، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم ، ولهذا لما نزل قوله : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾[4] فارق عمر امرأة مشركة ، وكذلك غيره ، فدل على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية ، ولو كانت آية البقرة قد نزلت قبل هذه لم يكن كذلك . فدل على أن آية البقرة بعد آية الممتحنة وآية المائدة بعد آية البقرة . فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم برجحان دليل وظن على دليل وهذا علم لا ظن .

فقد تبين أن الظن له أدلة تقتضيه ، وأن العالم إنما يعلم بما يوجب العلم بالرجحان لا بنفس الظن إلا إذا علم رجحانه ، وأما الظن الذي لا يعلم

---

(1) سورة المائدة ٥ .

(2) سورة البقرة ٢٢١ .

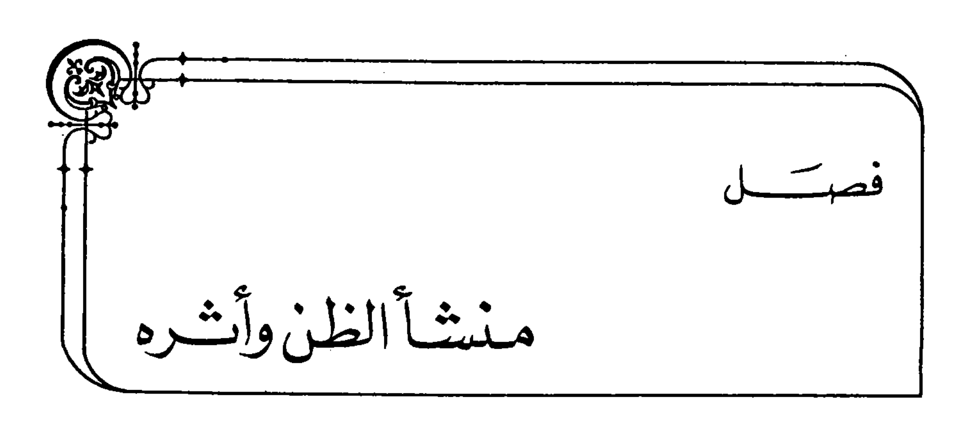
(3) سورة الممتحنة ١٠ .

(4) سورة الممتحنة ١٠ .

رجحانه فلا يكوز اتباعه ، وذلك هو الذي ذم الله به من قال فيه : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن** ﴾[1] فهم لا يتبعون إلا الظن ليس عندهم علم ، ولو كانوا عالمين بأنه ظن راجح لكانوا قد أنبعوا علماً لم يكونوا ممن يتبع إلا الظن والله أعلم .

(١) سورة النجم ٢٨ .





فصل

منشأ الظن وأثره

فههنا ثلاثة أشياء : أحدهما الظن الراجح في نفس المستدل المجتهد .

والثاني : الأدلة التي يسميها بعض المتكلمين أمارات التي تعارضت ، وعلم المستدل بأن التي أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها .

الثالث : أنه قد يكون في نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم يعلم به المستدل ، وهذا هو الواقع في عامة موارد الاجتهاد ، فإن الرجل قد يسمع نصاً عاماً كما سمع ابن عمر وغيره ، أن النبي ﷺ نهى عن قطع الخفين ، وأنه أمر أن لا يخرج أحد حتى يودع البيت ، أو أن النبي ﷺ نهى عن لبس الحرير : وظاهره العموم وهذا راجح على الاستصحاب النافي للتحريم ، فعملوا بهذا الراجح وهم يعلمون قطعاً أن النهي أولى من الاستصحاب ، لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خاص ، ولكن لما لم يعلموه لم يجز لهم أن يعدلوا عما علموه إلى ما لم يعلموه ، فكانوا يفتون بأن الحائض عليها الوداع وعليها قطع الخفين ، وأن قليل الحرير وكثيره حرام ، وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء لعموم قوله : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وكان في نفس الأمر نصوص خاصة بأن النبي ﷺ رخص للحائض أن تنفر بلا وداع ، وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهى عنه المحرم ، ولكن تجتنب النقاب والقفازين ، وأنه رخص في موضع إصبعين أو ثلاث أو أربعة من الحرير ، كما بين ذلك في الصحيح في رواية عمر ولم يعرف به ابنه عبد الله وكان له جبة مكفوفة بالحرير ،

فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا وعلموا حينئذ أنه كان في نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذي يستصحبوه ولم يعلموا به وهم في الحالين ، وإنما حكموا بعلم لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن ، فإنهم أولاً رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية ، وهذا ترجيح بعلم ، فإن هذا راجح بلا ريب والشرع طافح بهذا .

المجتهدون الأئمة قالوا بالعلم وحكموا به

فما أوجبه الله أو حرمه كتابه كالوضوء والصلاة والحج وغيرهما ، هي نصوص عامة ، وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة وهي راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم ، فمن رجح ذلك فقد حكم بعلم وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان ، ولم يكن ممن لم يتبع إلا الظن ، لكن لتجويزه أن يكون النص مخصوصاً صار عنده ظن راجح ، ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم . وكذلك لو علم إرادة نوع قطع بانتفاء النصوص وهذا القول في سائر الأدلة ، مثل أن يتمسك بنصوص وتكون منسوخة ولم يبلغه الناسخ ، كالذين نهوا عن الانتباذ في الأوعية وعن زيارة القبور ، ولم يبلغهم النص الناسخ ، وكذلك الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ ، مثل من كان من المسلمين بالبوادي وبمكة والحبشة وغير ذلك ، وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة وصلى بعضهم صلاة إلى القبلتين بعضها إلى هذه القبلة ، وبعضها إلى هذه القبلة ، لما بلغهم النسخ وهم في أثناء الصلاة ، فاستداروا في صلاتهم من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة من جهة الشام إلى جهة اليمن .

فالقاضي أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون في الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه ، يقولون ما ثم إلا الظن الذي في نفس المجتهد ، والأمارات لا ضابط لها وليست أمارة أقوى من أمارة ، فإنهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذي عمل بالمرجوح دون الراجح مخطئاً ، وعندهم ليس في نفس الأمر خطأ .

وأما السلف والأئمة الأربعة والجمهور فيقولون : بل الأمارات بعضها أقوى من بعض في نفس الأمر (**وعلى الإنسان أن يجتهد**) ويطلب الأقوى ، فإذا رأى دليلاً أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان مخطئاً معذوراً وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحان ، وخطؤه مغفور له وذلك الباطن هو الحكم لكن بشرط القدرة على معرفته ، فمن عجز عن معرفته لم يؤاخذ بتركه .

فإذا أريد بالخطأ الإثم ، فليس المجتهد بمخطىء بل كل مجتهد مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر ، فالمصيب واحد وله أجران كما في المجتهدين في جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة واحد وله أجران لاجتهاده وعمله كان أكمل من غيره ، والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملاً زاده أجراً بما زاده من العلم والعمل .

قال تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نساء** ﴾[1] قال مالك عن زيد بن أسلم بالعلم . وكذلك قال في قصة يوسف : ﴿ **ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم** ﴾[2] . وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع ما لم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم ما لم يفهم الآخر ، كما قال تعالى : ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً** ﴾[3] .

---

(١) سورة الأنعام ٨٣ .

(٢) سورة يوسف ٧٦ .

(٣) سورة الأنبياء ٧٨ ـ ٧٩ .

وهـذه حال أهـل الاجتهاد والنـظر والاستـدلال في الأصـول والفـروع ، ولم يفرق أحد من السلف والأئمة بين أصول وفروع .

بـل جعل الـدين قسمـين : أصـولاً وفـروعـاً لم يكن معـروفـاً في الصحـابـة والتـابعـين ، ولم يقـل أحـد من السلف والصحـابـة والتـابعـين أن المجتهـد الـذي استفـرغ وسعـه في طلب الحق يـأثم لا في الأصـول ولا في الفـروع ، ولكن هـذا التفـريق ظهر من جهـة المعتزلـة ، وأدخله في أصول الفقـه من نقـل ذلـك عنهم ، وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبـري أنه قـال : كل مجتهـد مصيب ومراده أنـه لا يأثم .

وهذا قول عامة الأئمة ، كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما .

ولهـذا يقبلون شهـادة أهـل الأهـواء ويصلون خلفهم ، ومن ردهـا كمـالـك وأحمـد فليس ذلك مستلزمـاً لإثمهما ، لكن المقصـود إنكار المنكـر وهجر من أظهـر البدعة فإذا هجر ولم يصل خلفه ، ولم تقبـل شهادتـه كان ذلـك منعاً لـه من إظهار البدعة ، ولهذا فرق أحمد وغيره بـين الداعيـة للبدعـة المظهـر لها وغيـره ، وكذلـك قـال الخرقي : ومن صـلى خلف من يجهر ببـدعة أو منكـراً عـاد ، وبسط هـذا لـه موضع آخر .

والذين فرقوا بين الأصـول والفروع ، ولم يـذكروا ضـابطاً يميـز بين النـوعين بل تارة يقولون هذا قطعي وهذا ظني ، وكثير من مسـائل الأحكـام قطعي ، وكثـير من مسـائل الأصـول ظني عند بعض النـاس ، فإن كـون الشيء قطعيـاً وظنياً أمـر إضـافي ، وتارة يقـولون الأصـول هي العمليات الخبـريـات والفـروع العمليـات ، وكثير من العمليات من جحدها كفر ، كوجوب الصلاة والـزكاة والصيـام والحج ، وتـارة يقولـون هذه عقليـات وهذه سمعيـات ، وإذا كانت عقليـات لم يلزم تكفـير المخـطىء ، فإن الكفـر حكم شرعي يتعلق بـالشرع ، وقـد بسط هذا في غـير هذا الموضع .

وإذا تدبر الإنسان تنازع الناس ، وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى كما في مسائل الأحكام ، مثال ذلك : ما تقدم في الأصول الخمسة التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين ومسائل الأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد ، وهي التي توالي المعتزلة من وافقهم عليها ويتبرءون ممن خالفهم فيها . وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب وثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقه وطاعة أمره ، لكن غلطوا في كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم ، وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ، ومن سلك مسلكهم كأبي الحسن الأشعري وأصحابه ، فإنهم ناقضوهم في الأصول الخمسة ، وكل من الطائفتين لم تحط علماً بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور ، أما العدل فعندهم كل ممكن فهو عدل ، والظلم عندهم هو الممتنع ، فلا يكون ثم عدل يقصد فعله وظلم يقصد تركه .

ولهذا يجوزون عليه فعل كل شيء وإن كان قبيحاً ، ويقولون القبيح هو ما نهى عنه وهو لا ناهي له ، ويجوزون الأمر بكل شيء وإن كان منكراً وشركاً ، والنهي عن كل شيء وإن كان توحيداً ومعروفاً فلا ضابط عندهم للفعل ، فلهذا ألزموهم جواز إظهار المعجزات على يد الكاذب ، ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح ، ولم يذكروا فرقاً بين المعجزات وغيرها ، ولا ما به يعلم صدق النبي ﷺ إلا إذا نقضوا أصلهم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** ﴾[1] وعندهم هذا لا فائدة فيه ، فليس في الممكن قسط وجور حتى يكون قائماً بهذا دون هذا ، وقد بسط في هذا غير هذا الموضع .

مفهوم الحكمة والعلم

وكذلك الحكمة عندهم لا تفعل لحكمة ، وقد فسروا الحكمة إما بالعلم وإما بالقدر ، وإما بالإرادة ، ومعلوم أن القادر قد يكون حكيماً ويكون غير

---

(١) سورة آل عمران ١٨ .

حكيم ، كذلك المريد قد يكون إرادته حكمة ، وقد يكون سفهاً ، والعلم يطابق المعلوم سواء كان حكمة أو سفهاً ، فليس عندهم في نفس الأمر أن الله حكيم وكذلك الرحمة ما عندهم في نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد المثلين بلا مرجح ، نسبتها إلى نفع العباد وضررهم سواء ، فليس عندهم في نفس الأمر رحمة ولا محبة أيضاً .

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين تناقضهم في الصفات والأفعال حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ومع نفي الحكمة ، وبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون البعض وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً منهم ، فإن الرازي ذكر في المطالب العلية مسألة الإرادة ورجح نفي الإرادة لأنه لم يمكنه أن يجيب عن حجة المتفلسفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة ففر إليهم ، وكذلك في غير هذا من المسائل فهو تارة يرجح قوله قول المتفلسفة ، وتارة يرجح قول المتكلمة ، وتارة يحار ويقف ، واعترف في آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً .

وقال : قد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية . فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق القرآن ، اقرأ في الاثبات : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[١]. **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾[٢].

واقرأ في النفي : ﴿ **ليس كمثله شيء**[٣] . . **ولا يحيطون به علماً** ﴾[٤].

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل تعريفي ، فقد تبين أنهم لا يثبتون عدل الرب ولا حكمته ولا رحمته ، وكذلك الصدق ، فإنهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم ، فقالوا : الصدق في الكلام النفساني واجب لأنه يعلم الأمور ، ومن يعلم يمتنع أن يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، وعلى هذا اعتمد الغزالي وغيره ، فقيل لهم هذا ضعيف لوجهين :

---

(١) سورة طه ٥ . (٢) سورة الشورى ١١ . (٣) سورة طه ١١٠ .

أحدهما : الصدق في ذلك المعنى لا ينفع إن لم يثبت الصدق في العبارات الدالة عليه ويتميز بين الأفعال عندهم .

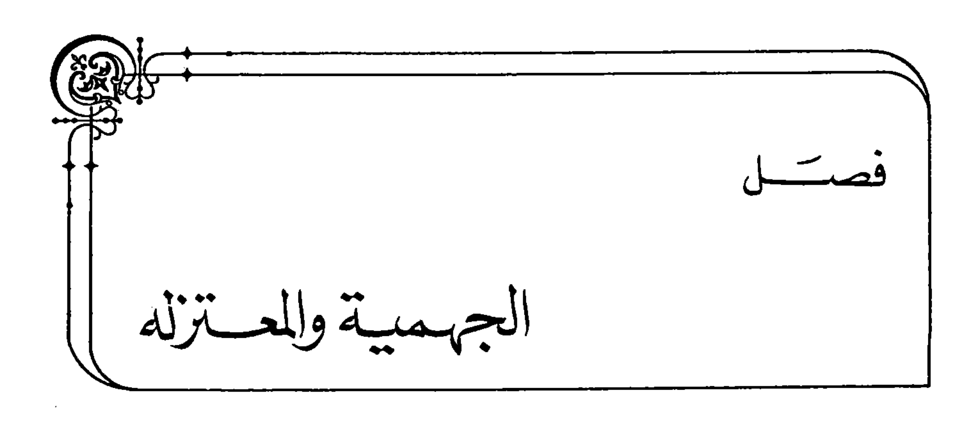
الثاني : أنهم أثبتوا الخبر النفساني فإن الإنسان يخرك بالكذب فيقوم في نفسه معنى ليس هو العلم وهو معنى الخبر ، فهذا يقتضي أنهم يقولون إن العلم قد يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، والرازي لما ذكر مسألة أنه لا يجوز أن يتكلم بكلام ولا يعني به شيئاً ، خلافاً للحشوية قيل له : هل قال أحد من طوائف الأمة أن الله لا يعني بكلامه شيئاً ، وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه ، وقيل لهم : هب أن في هذا نزاعاً فهو لم يقم دليل على امتناع ذلك ، بل قال هذا عيب أو نقص ، والله منزه عنه ، فقيل له : إما أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة .

أما الأول : فلا يجوز إرادته هنا لأن المسألة هي فيمن يتكلم بالحروف المنظومة ولا يعني به شيئاً ، وذلك القائم بالذات هو نفس المعنى ، وإن أردت الحروف وهو مراده فتلك عندك مخلوقة ، ويجوز عندك أن يخلق كل شيء ليس منزعاً عن فعل من الأفعال ، والعيب عندك هو ما لا نريده ، فهذا ممتنع فتبين أنه ليس لهم حجة لا على صدقه ولا على تنزيهه عن العيب في خطابه ، فإن ذلك إنما يكون ممن تنزيهه عن بعض الأفعال ، وتبين بذلك أنهم لا يثبتون عدله ولاحكمته ولا رحمته ولا صدقه .

والمعتزلة قصدهم إثبات هذه الأمور ولهذا يذكرونها في خطبة الصفات كما يذكرها أبو الحسين البصري وغيره ، كما ذكر في أول صور الأدلة خطبة مضمونها أن الله واحد عدل لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، وأنه بالناس لرءوف رحيم وأظن فيها إثبات صدقه ، ولهذا يكفرون من يجوره أو يكذبه أو يسفهه أو يشبهه ، ولكن قد غلطوا في مواضع كثيرة كما قد نبه على هذا في غير موضع ، فكلا الطائفتين معها حق وباطل ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه لم يؤمن ببعض ويكفر

ببعض ، وهؤلاء هم أهـل الرحمـة الذين لا يختلفـون بخـلاف أولئـك المختلفـين .
قال تعالى : ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾[1] .

(١) سورة هود ١١٩ ـ ١٢٠ .



فصل

الجهمية والمعتزلة

والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفي الصفات ، وابن كلاب ومن تبعه كالأشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم ، وأثبتوا الصفات لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية ، مثل كونه يتكلم بمشيئته ، ومثل كون فعله الاختياري يقوم بذاته ، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم ، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾[1] فأثبت رؤية مستقلة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** ﴾[2] ومثل كونه نادى موسى حين أتى لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته ، فإن المعتزلة والجهمية يقولون : خلق نداء في الهواء .

والكلابية والسالمية يقولون : النداء قام بذاته وهو قديم ، لكن سمعه موسى فاستجدوا سماع موسى ، وإلا فما زال عندهم منادياً .

والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا وتبين أنه ناداه حين جاء وأنه يتكلم بمشيئته في وقت بكلام معين كما قال : ﴿ **ولقد**

---

(١) سورة التوبة ١٠٥ .　　　(٢) سورة يونس ١٤ .

خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[2].

والقرآن فيه مئون من الآيات تدل على هذا الأصل ، وأما الأحاديث فلا تحصى ، وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء ، ولهذا قال عبد الله ابن المبارك والإمام أحد بن حنبل وغيرهما : لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول عامة أهل السنة ، فلهذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال : هو قديم لم يزل . والذين قالوا من المتأخرين : هو قديم كثير ، منهم من لم يتصور المراد ، بل منهم من يقول : هو قديم في علمه ، ومنهم من يقول : قديم أي متقدم الوجود متقدم على ذات زمان المبعث لا أنه أزلي لم يزل ، ومنهم من يقول بل مرادنا بقديم أنه غير مخلوق ، وقد بسط الكلام على هذا في غير الموضع .

والمقصود هنا أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآها وسمع أصوات عباده ، وكان ذلك بمشيئته وقدرته ، إذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته ، وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم وقد جاء في القرآن والسنة في غير موضع أنه يخص بالنصر والإستماع بعض المخلوقات كقوله ﷺ : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ملك كذاب وشيخ زان وعائل مستكبر ، وكذلك في الاستمتاع قال تعالى : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾[3] أي استمعت وقال النبي ﷺ : « ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » وقال : « لله أشد أذناً إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قينته » فهذا تخصيص بالإذن وهو الاستمتاع لبعض الأصوات دون بعض ، وكذلك سمع الإجابة كقوله : ﴿ سمع الله لمن حمده ﴾ وقول الخليل : إنك سميع الدعاء . وقوله : ﴿إنه سميع قريب ﴾[4] يقتضي التخصيص بهذا

---

(١) سورة الأعراف ١١ .
(٢) سورة آل عمران ٥٩ .
(٣) سورة الإنشقاق ٢ .
(٤) سورة سبأ ٥٠ .

السمع فهذا التخصيص ثابت في الكتاب والسنة هي تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته كما تقدم ، وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل لا بمعنى يقوم بذاته وتخصيص من يحب ، ومحبته بالنظر والاستماع المذكور يقتضي أن هذا النوع منتف عن غيرهم .

مبحث : الرؤية والسمع

(**لكن مع ذلك هل يقال**) إن نفس **الرؤية والسمع** الذي هو مطلق الإدراك هو من لوازم ذاته ، فلا يمكن وجود مسموع ومرئي إلا وقد تعلق به كالعلم ، أو يقال إنه أيضاً بمشيئته وقدرته فيمكنه أن لا ينظر إلى بعض المخلوقات ، هذا فيه قولان . والأول : قول من لا يجعل ذلك متعلقاً بمشيئته وقدرته ، وأما الذين يجعلونه متعلقاً بمشيئته وقدرته فقط يقولون متى وجد المرئي والمسموع وجب تعلق الإدراك به .

(**والقول الثاني**) أن جنس اسمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته ، فيمكن أن لا ينظر إلى شيء من المخلوقات ، وهذا هو المأثور عن طائفة من السلف ، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني قال : ما نظر الله إلى شيء من خلقه إلا رحمه ولكنه قضى أن لا ينظر إليهم .

وقد يقال هذا مثل الذكر والنسيان ، فإن الله تعالى قال : ﴿ **اذكروني أذكركم** ﴾[1] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » فهذا الذكر يختص بمن ذكره ، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ، ومن آمن به وأطاعه وذكره برحمته ومن أعرض عن الذكر الذي أنزله أعرض عنه كما قال : ﴿ **ومن أعرض عن ذكري**

---

(١) سورة البقرة ١٥٢ .

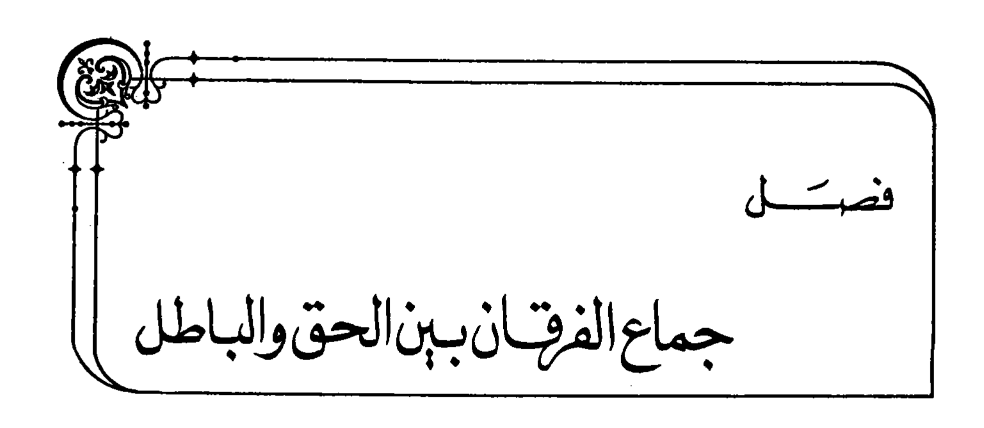
فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[1] ومثله قوله : **﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ﴾**[2].

وقد فسروا هذا النسيان بأنه[1]   وهذا النسيان ضد ذلك الذكر ، وفي الصحيح في حديث الكافر يحاسبه قال : « أفظننت أنك ملاقي ؟ قال : لا . قال : فاليوم أنساك كما نسيتني » فهذا يقتضي أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته ، وهو متعلق بمشيئته وقدرته أيضاً وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمله ، ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله فهذا النسيان لا يناقض ما علمه سبحانه من حال هذا .

---

(١) سورة طه ١٢٤ ـ ١٢٦ .

(٢) سورة التوبة ٦٧ .



في جماع الفرقان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك ، أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فإن وافقه فهو حق ، وإن خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه ، فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم .

(والعلم ما قام عليه الدليل) والنافع منه ما جاء به الرسول وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن في أمور دنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة والتجارة ، وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية ، فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول ، فالرسول أعلم الخلق بها وأرغبهم في تعريف الخلق بها وأقدرهم على بيانها وتعريفها ، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة ، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود ، ومن سوى الرسول إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد ، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه ، إما لرغبة وإما لرهبة وإما لغرض آخر ، وإما أن يكون بيانه ناقصاً ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان .

أوجه بيان الرسول

وبيان الرسول عن وجيهن : تارة يبين الأدلة العقلية الدالة عليها ، والقرآن

مملوء من الأدلـة العقلية والبـراهين اليقينيـة على المعـارف الإلهية والمطالب الـدينيـة وتـارة يخبر بهـا خبراً مجـرداً لما قـد أقامـه من الآيات البينـات والدلائـل اليقينيات ، عـلى أنه رســول الله المبلغ عن الله ، وأنـه لا يقـول عليـه إلا الحق وأن الله شهـد له بذلـك وأعلم عباده وأخبـرهـم أنه صـادق مصدوق فيـما بلغه عنـه . والأدلة التي بهـا نعلم أنه رســول الله كثيرة متبـوعة وهي أدلـة عقلية يعلم صحتهـا بـالعقـل ، وهي أيضـاً شرعيـة سمعية لكن الـرسول بينهـا ودل عليهـا وأرشـد إليهـا ، وجمـع طـوائف النظار متفقـون عـلى أن القـرآن اشتمـل عـلى الأدلـة العقليـة في المـطالب الدينية وهم يـذكرون ذلـك في كتبهم الأصوليـة ، وفي كتب التفسير وعـامة النـظار أيضاً ، يحتجون بـالأدلة السمعيـة الخبريـة المجردة عن المـطالب الدينيـة ، فإنـه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

(**والعلوم ثلاثة أقسام**) منها : ما لا يعلم إلا بالأدلـة العقلية وأحسن الأدلـة العقلية التي بينها القـرآن وأرشد إليهـا الرسـول . فينبغي أن يعرف أن أجـل الأدلة العقليـة وأكملها وأفضلهـا مأخـوذ عن الرسـول . فإن من النـاس من يـذهـل عن هـذا ، فمنهم من يقدح في الـدلائل العقليـة مطلقـاً ، لأنه قـد صـار في ذهنـه أنها هي الكـلام المبتـدع الـذي أحـدثـه من المتكلمـين ، ومنهم من يعـرض عن تـدبـر القـرآن وطلب الدلائـل اليقينية العقليـة منه لأنـه قد صـار في ذهنه أن القـرآن إنمـا يـدل بطريق الخبـر فقط . فلا بـد أن يعلم بالعقـل قبل ذلـك ثبوت النبـوة وصدق الخبر حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقـه ، ومنها مـا لا يعلمه غـير الأنبيـاء إلا بخبر الأنبيـاء ، وخبـرهـم المجـرد هـو دليـل سمعي مثـل تفـاصيـل مـا أخبروا به من الأمور الإلهية والملائكة والعرش والجنة والنار ، وتفاصيـل ما يؤمـر به وينهي عنه ، فأما نفس إثبات الصانع ووحدانيته وعلمـه وقدرتـه ومشيئته وحكمتـه ورحمته ونحو ذلـك ، فهذا لا يعلم بـالأدلة العقليـة وإن كانت الأدلـة والآيات التي يأتي بها الأنبيـاء هي أكمل الأدلـة العقلية ، لكن معـرفة هـذه ليست مقصورة عـلى الخبـر المجـرد وإن كـان أخبـار الأنبيـاء المجـردة تفيـد العلم اليقيني أيضـاً ، فيعلم

بالأدلة العقلية التي أرشدوا إليها ، ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التي دلت على صدقهم .

(**وقد تنازع الناس في العلم بالمعاد وبحسن الأفعال وقبحها**) فأكثر الناس يقولون إنه يعلم بالعقل مع السمع ، والقائلون بأن العقل يعلم به الحسن والقبح أكثر من القائلين بأن المعاد يعلم بالعقل .

قال **أبو الخطاب** : هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، ومنهم من يقول : المعاد والحسن والقبح لا يعلم إلا بمجرد الخبر وهو قول الأشعري وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وأبي الوليد التاجي وغيرهم ، وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذي هو مجرد الخبر ، مثل كون أفعال العباد مخلوقة لله أو غير مخلوقة ، وكون رؤيته ممكنة أو ممتنعة ونحو ذلك ، وكتب أصول الدين بجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخبرية ، لكن الرازي طعن في ذلك في المطالب العالية ، قال لأن الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلي ، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه . قال : والعلم بانتفاء المعارض العقلي متعذر ، وهو إنما يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد .

وقد يظن أن هذه طريقة أئمته الواقفة في الوعيد ، كالأشعري والقاضي أبي بكر وغيرهما وليس كذلك ، فإن هؤلاء إنما وقفوا في أخبار الوعيد خاصة ، لأن العموم عندهم لا يفيد القطع ، أو لأنهم لا يقولون بصيغ العموم .

وقد تعارضت عندهم الأدلة وإلا فهم يثبتون الصفات الخبرية لله كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ، ولم يختلف قول الأشعري في ذلك وهو قول أئمة أصحابه ، لكن أبو المعالي وأتباعه لا يثبتون الصفات الخبرية ، بل فيهم من ينفيها ، ومنهم من ينف فيها كالرازي والآمدي ، فيمكن أن يقال قول الأشعري ينزع من قول هؤلاء بأن يقال لا يعرف أنهم اعتمدوا في الأصول على دليل سمعي ، لكن يقال المعاد يحتجون عليه بالقرآن والأحاديث ، ولكن الرازي هو

الذي سلك فيه طريق العلم الضروري أن الرسول جاء به ، وفي الحقيقة فجميع الأدلة اليقينية توجب علماً ضرورياً والأدلة السمعية الخبرية توجب علماً ضرورياً ، بأخبار الرسول ، لكن منها ما تكثر أدلته كخبر الأخبار المتواترة ، ويحصل به علم ضروري من غير تعيين دليل ، وقد يعين الأدة ويستدل بها ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية سمعيها وعقليها ، ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على ما قاله حق جملة وتفصيلاً ، فدلائل النبوة فإعلامها تدل على ذلك جملة ، وتفاصيل الأدلة العقلية الموجودة في القرآن والحديث يدل على ذلك تفصيلا ، وأيضاً قال : الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا ، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه وأولاهم بالحق فيه ، وأيضاً فمن جرب ما يقولونه ويقوله غيرهم وجد الصواب معهم ، والخطأ مع مخالفيهم ، كما قال الرازي ، مع أنه من أعظم الناس طعناً في الأدلة السمعية حتى ابتدع قولاً ما عرف به قائل مشهور غيره ، وهو أنها لا تفيد اليقين ومع هذا فإنه يقول : لقد تأملت **الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية** فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات : ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب**[1] . . . **الرحمن على العرش استوى**﴾[2] .

وأقرأ في النفي : ﴿**ليس كمثله شيء**[3] . . . **ولا يحيطون به علماً**﴾[4] .

قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي . وأيضاً (**فمن اعتبر ما عند الطوائف**) الذين لم يعتصموا بتعليم الأنبياء وإرشادهم وأخبارهم ، وجدهم كلهم حائرين ضالين شاكرين مرتابين ، أو جاهلين جهلاً مركباً ، فهم لا يخرجون عن المثلين اللذين في القرآن : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة**

---

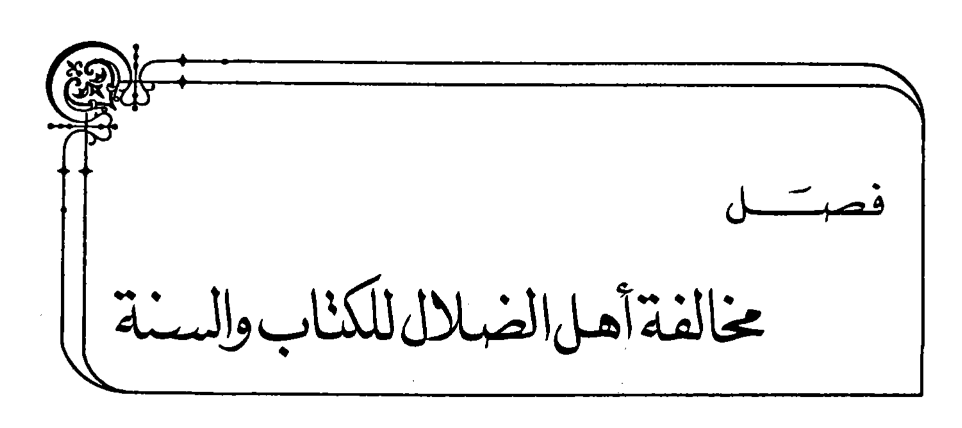
(١) سورة فاطر ١٠ .
(٢) سورة طه ٥ .
(٣) سورة الشورى ١١ .
(٤) سورة طه ١١٠ .

يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنـده فوفـاه حسابه والله سـريع الحسـاب أو كظلمات في بحـر لجِّيٍّ يغشاه مـوج من فوقـه مـوج من فـوقـه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخـرج يده لم يكـد يراهـا ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[1].

---

(1) سورة النور ٣٩.





فصل

مخالفة أهل الضلال للكتاب والسنة

وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وهم كما قال مجاهد : أهل البدع والشبهات ، يتمسكون بما هو بدعة في الشرع ومشتبه في العقل ، كما قال فيهم الإمام أحمد . قال : **هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب** ، يحتجون بالمتشابه من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم ، والموفقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، صم يعرضون على ذلك القرآن والحديث ، فإن وافقه احتجوا به اعتقاداً لا اعتماداً ، وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن مواضعه ويتأولونه على غير تأويله ، وهذا فعل أئمتهم ، وتارة يعرضون عنه . ويقولون : نفوض معناه إلى الله ، وهذا فعل عامتهم وعمدة الطائفتين في الباطن غير ما جاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف إما كافر وإما جاهل لا يعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالأصول ، ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من المتشابه الذي لا يعرف معناه إلا الله ، أو لا يعرف معناه إلا الراسخون في العلم والراسخون عندهم من كان موافقاً لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل ممن تمسك بما تشابه عليه من آيات الكتاب ، ويترك المحكم كالنصارى والخوارج وغيرهم ، إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكماً وجعلوا المحكم متشابهاً ، وأما أولئك كنفاة الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم (**وكالفلاسفة**) فيجعلون

ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وإن لم يكن معهم من الأنبياء والكتاب والسنة ما يوافقه ويجعلون ما جاءت به الأنبياء وإن كان صريحاً قد يعلم معناه بالضرورة يجعلونه من المتشابه .

ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للأنبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف بن أسباط وعبد الله بن المبارك وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : أن الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الاثنتين وسبعين فرقة . قالوا : وأصولها أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية . وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن قوله تعالى يقال : **﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات ﴾**[1] في المتشابهات قولان . أحدهما : أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس . والثاني : وهو الصحيح أن التشابه أمر نسبي ، فقد تشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لا يتشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم كما قال : **﴿ أحكمت آياته ثم فصلت ﴾**[2]، وهذا كقوله : « الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ ، وبين ذلك أمور لا يعلمهن كثير من الناس » .

وكذلك قولهم : **﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾**[3] وقد صنف أحمد كتاباً في الرد على الزنادقة والجهمية فيما سكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها ، وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها ، مثل الآيات التي سأل عنها نافع بن الأزرق لابن العباس .

قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها ، ومن قال من السلف أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً ، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه مثل وقت الساعة ، ومجيء

---

(١) سورة آل عمران ٧.　　(٢) سورة هود ١ .　　(٣) سورة البقرة ٧٠ .

أشراطها ومثل كيفية نفسه وما أعده في الجنة لأوليائه ، وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم كقوله « أنا ـ ونحن » وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان لم يرد به إلا الآلهة ثلاثة ، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ما قيل فيه « إيا » وما قيل فيه « انا » لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه إذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده ، ولهذا لا يقول : فإيانا فاعبدوا ، إيانا فارهبوا ، بل متى كان الأمر بالعباد والتقوى والخشية والتوكل ، ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، وإذا ذكر الأفعال التي يرسل فيها الملائكة قال : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً**[1] . . . **فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**[2] . . . **نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق** ﴾[3] ونحو ذلك ، مع أن تأويل هذا وهو حقيقة ما دل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية إرسال الرب لهم ، لا يعلمه إلا الله ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ، ويتدبر معناه ويعقل ويعرف برهانه ودليله ، إما العقلي ، وإما الخبري السمعي ويعرف دلالة القرآن على هذا ، وهذا يجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ يحتمل كذا وكذا : ويحتمل كذا وكذا ، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد ، وهذا مثل لفظ المركب والجسم والمتحيز والجوهر والجهة والعرض ونحو ذلك ، ولفظ الحيز ونحو ذلك ، فإن هذه الألفاظ ما لا يوجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح ، بل ولا في اللغة أيضاً ، بل هم يختصمون بالتعبير بها عن معانٍ لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى : ويبطن ما دل عليه القرآن الأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم ، فإنها ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى

---

(١) سورة الفتح ١ . (٢) سورة القيامة ١٨ . (٣) سورة القصص ٣ .

المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الأخرى بمعنى آخر ، فهو في صورة اللفظ دليل ، وفي المعنى ليس بدليل . كمن يقول : سهيل بعيد من الثريا . لا يجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها . والذي قال :

أيها المنكح الثريا سهيلا

أراد امرأة اسمها الثريا ، ورجلاً اسمه سهيل . ثم قال :

عمرك الله كيف يلتقيان   هي شامية إذا ما استقلت
وسهيل إذا استقل يمان

وهذا لفظ مشترك ، فجعل يعجبه وإنكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع .

والأصل الذي بنى عليه نفاة الصفات ، وعطلوه حتى صار منتهاهم إلى قول فرعون الذي جحد الخالق ، وكذب رسوله موسى في أن الله كلمه هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الأجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لا تخلوا من الحوادث ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث ، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم ، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم ، وقد صنف الناس مصنفات متعددة ، فيها أقوال السلف والأئمة في ذم الجهمية وفي ذم هؤلاء المتكلمين .

(**والسلف لم يذموا جنس الكلام**) فإن كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله بل ول ذموا كلاماً هو حق ، بل ذموا الكلام الباطل ، وهو المخالف للكتاب والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل .

فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع والعقل ، ولكن كثير من الناس خفى عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من اعتقده موافقاً للشرع والعقل حتى اعتقد أن إبراهيم الخليل استدل به ، ومن

هؤلاء من يجعله أصــل الـدين ولا يحصــل الإيمـان أو لا يتم إلا بــه ، ولكن من عرف ما جاء به الـرسول ومـا كان عليـه الصحابـة ، علم بالاضـطرار أن الرسـول والصحابة لم يكونوا يسلكـون هذا المسلك ، فصـار من عرف ذلك يعرف أن هـذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنـه فاسـد ، بل يـظن مع ذلـك أنه صحيـح من جهة العقـل ، لكنه طـويل أو تبعـد المعـرفـة ، أو هـو طـريق مخيفـة مخـطر يخـاف عـلى سـالكه ، فصـاروا يعيبونـه كـما يعـاب الـطريق الـطويـل والـطريق المخيف ، مـع اعتقـادهم أنه يـوصل إلى المعـرفة وأنـه صحيح في نفسـه . وأما الحـذاق العارفـون تحقيقه ، فعلموا أنه باطـل عقلاً وشـرعاً ، وأنـه ليس بطريق مـوصل إلى المعـرفة ، بـل إنما يـوصل لمن اعتقـد صحتـه إلى الجهـل والضـلال ، ومن تبـين لـه تنـاقضـه أوصله إلى الحيرة والشك .

ولهذا صار حذاق سالكيـه ينتهون إلى الحيـرة والشك ، إذ كـانت حقيقته أن كل موجود فهو حـادث مسبوق بـالعدم ، وليس في الـوجود قـديم وهذا مكـابرة ، فـإن الوجـود مشهور ، وهـو إمـا حـادث ، وإمـا قـديم ، والحـادث لا بـد لـه من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين .

وكذلك ما ابتدعه في هذه الـطريق ابن سينا وأتبـاعه من الاستـدلال بالممكن على الواجب أبـطل من ذلك ، كـما قد بسط ذلـك في غير هـذا الموضـع ، وحقيقته أن كـل موجـود فهو ممكن ليس في الـوجود مـوجود بنفسـه ، مـع أنهم جعلوا هـذا طـريقاً لإثبـات الواجب بنفسـه ، كما يجعـل أولئك هـذا طريقـاً لإثبات القـديم ، وكـلاهما ينـاقض ثبـوت القـديم الـواجب فليس في واحـد منهـما إثبـات قـديم ولا واجب بنفسـه ، مع أن ثبـوت موجـود قـديم وواجب بنفسـه معلوم بـالضـرورة ، ولهذا صار حذاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقـديم هو العـالم بنفسه ، وقـالوا هـو الله وأنكـروا أن لا يكـون العـالم رب مبـاين للعـالم ، إذ كـان ثبـوت القــديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن أنكـر الصانـع ما كـان ينكر هذا الـوجود المشهـود ، فلما كان حقيقـة قول أولئـك يستلزم أنه ليس مـوجود

قـديم ولا واجب ، لكنهم لا يعرفـون أن هذا يلزمهم ، بـل يـظنـون أنهم أقـامـوا الدليل على إثبات القديم الواجب بنفسه .

أخطأ الفلاسفة في مبحث الصفات

(**ولكن وصفـوه**) بصفات الممتنـع فقالـوا : لا داخل العـالم ولا خـارجـه ، ولا هو صفة ، ولا موصوف ، ولا يشار إليه ونحـو ذلك من الصفـات السلبية التي تستلزم عـدمه ، وكـان هذا مما تنفر عنـه العقول والفـطر ، ويعرف أن هـذا صفة المعدوم الممتنع لا صفـة الموجـود ، فدليلهم في نفس الأمـر يستلزم أنه مـا ثم قديم ولا واجب ، ولكن ظنـوا أنهم أثبتوا القـديم والواجب ، وهـذا الذي *أثبتـوه هـو ممتنع فما أثبتوا قديماً ولا واجباً ، فجـاء آخرون من جهتهم فـرأوا هذا مكـابرة ، ولا بـد من إثبات القـديم والواجب فقـالوا : هـو هذا العـالم ، فكان قـدمـاء الجهمية يقولون : إنه بذاته في كل مكان ، وهؤلاء قالـوا : هو غـير الموجـودات ، والموجـود القـديم الواجب هـو نفس الوجـود المحدث الممكن ، والحلول هـو الذي أظهـرتـه الجهميـة للناس حتى عـرفه السلف والأئمـة وردوه ، وأما حقيقـة قولهم فهـو النفي أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هـذا لم تسمعه الأئمـة ولم يعرفـوه أنه قـولهم إلا من بـاطنهم ، ولهـذا كـان الأئمـة يحكـون عن الجهميـة أنـه في كـل مكـان ، ويحكـون عنهم وصفه بـالصفات السلبيـة وشاع عنـد النـاس أن الجهميـة يصفـونـه بالسلوب حتى قال أبو تمام :

جـهـمـيـة الأوصـاف إلا أنها ... قـد حليت بمحـاسن الأشيـاء

وهم لم يقصـدوا نفي القـديم والـواجب ، فـإن هـذا لا يقصـده أحـد من العقلاء لا مسلم ولا كافر ، إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحـد ببديهـة عقله ، فإنـه إذا قـدر أن جميع المـوجودات حـادثـة عن عـدم لـزم أن كـل المـوجـودات حـدثت بـأنفسها ، ومن المعلوم ببـداهة العقـول أن الحادث لا يحـدث بنفسه . ولهـذا قـال تعـالى : ﴿ **أم خلقوا من غـير شيء أم هم الخالقون** ﴾[1] وقد قيل : خلقوا من غـير

(١) سورة الطور ٣٥.

شيء من غير رب خلقهم . وقيل : من غير مادة . وقيل : من غير عاقبة وجزاء ، والأول مراد قطعاً فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق .

حدوث العالم

(**ومعرفة الفطر**) أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها من أن كل محدث لا بد له من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فإن كثيراً من العقلاء نازع في هذا وهذا ، ولم ينازع في الأول طائفة . قال : إن هذا العالم حدث من غير محدث أحدثه بل من الطوائف من قال : إنه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع ، وإما أن يقول إنه محدث حدث بنفسه بلا صانع ، فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة وإنما يحكى عمن لا يعرف ، ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله ممن حصل له فساد في عقله صار به إلى السفسطة ، والسفسطة تعرض لآحاد الناس وفي بعض الأمور ، ولكن أمة من الأمم كلهم سوفسطائية في كل شيء هذا لا يتصور ، فلهذا لا يعرف عن أمة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث ، وهؤلاء لما اعتقدوا أن كل موصوف أو كل ما قامت به صفة أو فعل بمشيئته فهو محدث وممكن لزمهم القول بحدوث كل موجود ، إذ كان الخالق جل جلاله متصفاً بما يقوم به من الصفات والأمور الاختياريات ، مثل أنه متكلم بمشيئته وقدرته ، ويخلق ما يخلقه بمشيئته وقدرته .

لكن هؤلاء اعتقدوا انتفاء هذه الصفات عنه ، لاعتقادهم صحة القول بأن ما قامت به الصفات والحوادث فهو حادث ، لأن ذلك لا يخلو من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإذا كان حادثاً كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب وأنه ذات مجردة عن الصفات ووجوده مطلق لا يشار إليه ولا يتعين ، ويقولون هو بلا إشارة ولا تعيين ، وهذا الذي أثبتوه لا حقيقة له في الخارج ، وإنما هو في الذهن فكان ما أثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان ، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع .

فجاء إخوانهم في أصل المقالة وقالوا : هذا الوجود المطلق المجرد عن الصفات ، هو الوجود الساري في الموجودات : فقالوا بحلوله في كل شيء ، وقال آخرون منهم : هو وجود كل شيء ، ومنهم من فرق بين الوجود والثبوت ، ومنهم من فرق بين التعيين والإطلاق ، ومنهم من جعله في العالم كالمادة في الصورة ومنهم من جعله في العالم كالزبد في اللبن ، وكالزيت والشيرج في السمسم والزيتون ، وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الأصل الذي أضلهم : قولهم ما قامت به الصفات والأفعال والأمور الاختيارية أو الحوادث فهو حادث ، ثم قالوا : والجسم لا يخلو من الحوادث وأثبتوا ذلك بطرق ، منهم من قال لا يخلو عن الأكوان الأربعة : الحركة ، والسكون ، والاجتماع ، والافتراق . ومنهم من قال : لا يخلو عن الحركة والسكون فقط ومنهم من قال لا يخلو عن الأعراض ، والأعراض كلها حادثة وهي لا تبقى زمانين ، وهذه طريقة الآمدي ، وزعم أن أكثر أصحاب الأشعرية اعتمدوا عليها ، والرازي اعتمد على طريقة الحركة والسكون وقد بسط الكلام على هذه الطرق وجميع ما احتجوا به على حدوث الجسم وإمكانه ، وذكرنا في ذلك كلامهم هم أنفسهم في فساد جميع هذه الطرق ، وأنهم هم بينوا فساد جميع ما استدل به على حدوث الجسم وإمكانه ، وبينوا فسادها طريقاً طريقاً بما ذكروه ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

مذهب الهشامية والكرامية

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم ، ممن يقول بأنه جسم قديم ، فقد شاركوهم في أصل هذه المقالة ، لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم ، ولا قالوا إن التجسم لا ينفك عن الحوادث إذ كان القديم عندهم جسماً قديماً وهو خال من الحوادث ، وقد قيل : أول من قال في الإسلام أن القديم جسم ، هو هشام بن الحكم ، كما أن أول من أظهر في الإسلام في الجسم هو الجهم بن صفوان ،

وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية كثير مشهور ، فإن مرض التعطيل شر من مرض الجسم .

مذهب السلف

وإنما كان السلف يذمون المشبهة كما قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وإسحق بن راهويه وغيرهما . قالوا : المشبهة الذين يقولون بصر كبصري ، ويد كيدي ، وقدم كقدمي ، وابن كلاب ومن تبعه أثبتوا الصفات التي لا تثبت بمشيئته وقدرته فينفونها قالوا : لأنها حادثة ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً ، لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن ضده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده ، فلم يخل من الحوادث فيكون حادثاً .

ومحمد بن كرام فكان بعد ابن كلاب في عصر مسلم بن الحجاج ، أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ويتكلم بمشيئته وقدرته ، ولكن عنده يمتنع أنه كان في الأول متكلماً بمشيئته وقدرته ، لامتناع حوادث لا أول لها ، فلم يقل بقول السلف إنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، بل قال إنه صار يتكلم بمشيئته وقدرته ، كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك ، وقال هو وأصحابه في المشهور عنه : أن الحوادث التي تقوم به لا يخلو منها ولا يزول عنها ، لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كان قابلاً لحدوثها وزوالها ، وإذا كان قابلاً كذلك لم يخل منه ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإنما يقبل على أصلهم أنه تقوم به الحوادث فقط ، كما يقبل أن يفعلها ويحدثها ولا يلزم من ذلك لم تخل منه ، كما لم يلزم أنه لم يزل فاعلاً لها .

الحدوث والإحداث

والحدوث عندهم غير الإحداث ، والقرآن عندهم حادث لا محدث ، لأن المحدث يفتقر إلى إحداث بخلاف الحدوث ، وهم إذا قالوا كان خالياً منها في الأزل وكان ساكناً ، لم يقولوا إنه قام به حادث بل يقولون السكون أمر عدمي

كما يقوله الفلاسفة ، ولكن الحركة أمر وجودي بخلاف ما يقوله من المعتزلة والأشعرية أن السكون أمر وجودي كالحركة ، فإذا حصل به حادث لم يكن ثم عدم هذا الحادث ، فإنما يعدم الحادث بإحداث يقوم به ، وهذا ممتنع وهم يقولون إنه يمتنع عدم الجسم .

وعندهم أن الباري يقوم به إحداث المخلوقات وإفناؤها ، فالحوادث التي تقوم به لو أفناها لقام به الإحداث والإفناء ، فكان قابلاً لأن يحدث فيه حادث ويفنى ذلك الحادث ، وما كان كذلك لم يخل من إحداث وإفناء فلم يخل من الحوادث وما لم يخل منها فهو حادث ، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده كما قالت الكلابية ، لكن المعتزلة يقولون السكون ضد الحركة ، فالقابل لأحدهما لا يخلو عنه وعن الآخر ، وهؤلاء يقولون السكون ليس بضد وجودي بل هو عدمي ، وإنما الوجودي هو الإحداث والإفناء ، فلو قبل قيام الإحداث والإفناء به لكان قابلاً لقيام الأضداد الوجودية ، والقابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وهؤلاء لما أراد منازعوهم إبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم ، كما ذكر ذلك أبو المعالي وأتباعه ، وكما ذكر الآمدي تناقضهم من وجوه كثيرة قد ذكرت في غير هذا الموضع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم ، لا على صحة مذهب المنازع .

وثم طائفة كثيرة تقول : **إنه تقوم به الحوادث وتزول** وأنه كلم موسى بصوت وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكرامية لهم في ذلك قولان ، وإلا فالقول بفناء الصوت الذي كلم به موسى من جنس القول بقدمه ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام والحديث والفقه من السالمية وغيرهم ، ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول : إنه كلم موسى بصوت سمعه موسى ، وذلك الصوت قديم ، وهذا القول يعرف فساده ببديهة العقل ، وكذلك قول من يقول كلمة بصوت حادث وإن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هي أقوال يعرف فسادها بالبديهة .

وإنما أوقع هذه الطوائف في هذه الأقوال ، ذلك الأصل الذي تلقوه عن الجهمية ، وهو أن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وهو باطل عقلاً وشرعاً ، وهذا الأصل فاسد مخالف للعقل والشرع ، وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية ، فلا للإسلام نصروا ولا لعدوه كسروا بل قد خالفوا السلف والأئمة ، وخالفوا العقل والشرع ، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم من الفلاسفة ، والدهرية والملاحدة ، بسبب غلطهم في هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم ، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول ، وثبت لهم الأصل ، ولكن ضيعوا الأصول ، فحرموا الوصول والأصول أتباع ما جاء به الرسول .

وأحدثوا أصولاً ظنوا أنها أصول ثابتة ، وكانت كما ضرب الله المثلين مثل البناء والشجرة فقال في المؤمنين والمنافقين : ﴿ **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[1] .

وقال : ﴿ **ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتى كلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها عن قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾[2] .

والأصول مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء ، ولهذا يقال فيه الأصل ما ابتنى عليه غيره أو ما يفرع عنه غيره .

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء كما قيل :

أيها المغتدي لتطلب علما ... كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح حكما ... ثم أغفلت أصل أصل الأصول

(١) سورة التوبة ١٠٩ . (٢) سورة إبراهيم ٢٤ .

والله يهدينا وسائر إخواننا المؤمنين إلى صراطه المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . وهذه الأصول ينبني عليها ما في القلوب ، ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين .

والكلمة هي قضية جازمة وعقيدة جامعة ، ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، فبعث ابعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية ، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية ﴿ **كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء**﴾[1] فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب كنبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في السماء ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾[2]، والله سبحانه مثل الكلمة الطيبة ، أي كلمة التوحيد بشجرة طيبة ﴿ **أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾[3] .

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن ، ولها فرع عال ، وهي ثابتة في قلب ثابت كما قال : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾[4] .

فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة ، والإيمان في قلبه ثابت مستقر ، وهو في نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه ، والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ، استؤصلت واجتثت كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض ، ما لها من قرار ، لا مكان تستقر فيه ولا استقرار في المكان ، فإن القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى : ﴿**بئس القرار** ﴾[5] .

وقال : ﴿ **جعل لكم الأرض قراراً**﴾[6]، ويقال: فلان ما له قرار : أي

---

(١) سورة إبراهيم ٢٤ .
(٢) سورة فاطر ١٠ .
(٣) سورة إبراهيم ٢٤ .
(٤) سورة إبراهيم ٢٧ .
(٥) سورة إبراهيم ٢٩ .
(٦) سورة غافر ٦٤ .

ثبات . وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا ، فالمبطل ليس قوله ثابتاً في قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر . كما قال تعالى في المثل الآخر : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾[1] فإنه وإن اعتقده مدة فإنه عند الحقيقة يخونه كالذي يشرك بالله ، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله ، وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه ، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت ، كان له فرع في السماء يوصله إلى الله ، فإنه سبحانه : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾[2] ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول ، لأنه ضيع الأصول ، ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة . كما قال تعالى : ﴿ **له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾[3] .

والله سبحانه بعث الرسل ، وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له ، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله .

أصل العبادة

وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه ، وما وصف به رسله ، ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ولا عبدوه حق عبادته .

والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ﴿ **ما قدروا الله حق قدره** ﴾[4] في ثلاث

---

(١) سورة الرَّعد ١٧ .
(٢) سورة فاطر ١٠ .
(٣) سورة الرعد ١٤ .
(٤) سورة الحج ٧٤ .

مواضع ليثبت عظمته في نفسه وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته ، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على رسله فقال في الزمر : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة** ﴾ الآ الآية .

وقال في الحج : ﴿ **ضعف الطالب والمطلوب وما قدروا الله حق قدره** ﴾[٢] .

وقال في الأنعام : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** ﴾[٣] .

والمواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار ، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته وأن يجاهد فيه حق جهاده ، قال تعالى : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده** ﴾[٤]، وقال : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾[٥]والمصدر هنا مضاف إلى المفعول والفاعل مراد ، أي حق جهاده الذي أمركم به ، وحق تقاته التي أمركم بها ، واقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به ، فصدقوا الرسول فيما أخبر وأطيعوه فيما أوجب وأمر .

وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه . قالت عائشة فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو . دلت الآية على أن قدراً عظيماً لا سيما قوله : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه** ﴾[٦] .

وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : من آمن بأن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على إصبع ، والأرضين على

---

(١) سورة الزمر ٦٧ .
(٢) سورة الحج ٧٤ .
(٣) سورة الأنعام ٩١ .
(٤) سورة الحج ٧٨ .
(٥) سورة آل عمران (١٠٢) .
(٦) سورة الزمر ٦٧ .

إصبع ، والجبال على إضبع ، والشجر والثرى على إصبع ، وساشر الخلق على إصبع ، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً لقول الحبر ، وقرأ هذه الآية .

وعن ابن عباس قال : مرَّ يهودي بالنبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه ، والأرض على ذه ، والجبال والمال على ذه ، وسائر الخلق على ذه . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه** ﴾[1] .

رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الضحى عن ابن عباس وقال : غريب حسن صحيح .

وهذا يقتضي أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر ، فإن الذي في الآية أبلغ كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ » .

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أين الملوك الجبارون أين المتكبرون ؟ » رواه مسلم أبسط من هذا ، وذكر فيه أنه يأخذ الأرض بيده الأخرى .

وقد روى ابن حاتم حدثنا أبي ثنا عمرو بن رافع ثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير قال : تكلمت اليهود في صفة الرب تبارك وتعالى ، فقالوا : ما لم يعلموا ولم يروا . فأنزل الله على نبيه : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾[2] فجعل صفته التي وصفوا بها شركاً .

وقال : حدثنا أبي ثنا أبو نعيم ثنا الحكم - يعني أبا معاذ - عن الحسن

---

(١) سورة الزمر ٦٧ .　　(٢) سورة الزمر ٦٧ .

قال : عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى على نبيه : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾[1] وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه ، وأنهم لم يقدروه حق قدره ، وقوله ﴿**عما يشركون**﴾[2] ،فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق ، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق ، فهو مشرك سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فعدل بربه ، والرب تعالى : لا كفؤ له ، ولا سمى له ، ولا مثل له ، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء ، فإنه معطل ، ممثل . والمعطل : شر من المشرك والله ذكر قصة فرعون في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها ، فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته إلى ما ذكر الله تعالى وليس لله صفة يماثله فيها غيره .

فلهذا لم يجز أن يستعمل في حقه قياس التمسك ولا قياس السموك الذي يستوى إفراده ، فإن ذلك شرك إذ سوى فيه بالمخلوق . بل قياس الأولى فإنه سبحانه له المثل الأعلى في السموات والأرض فهو أحق من غيره بصفات الكمال ، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص ، وقد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع ، وبين أن من جعله الوجود المطلق والمقيد بالسلب أو ذاتاً مجردة ، فهؤلاء مثلوه بأنقص المعقولات الذهنية ، وجعلوه دون الموجودات الخارجية ، والنفاة الذين قصدوا إثبات حدوث العالم بإثبات حدوث الجسم ، لم يثبتوا بذلك حدوث شيء ، كما قد بين في موضعه .

ثم إنهم جعلوا عمدتهم في تنزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم ، ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شيء من النقائص البتة ، فإنه ما من صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام ، إلا يقال له فيما

---

(١) سورة الزمر ٦٧ . (٢) سورة الزمر ٦٧ .

أثبته نظير ما يقوله هو في نفس تلك الصفة ، فإن كان مثبتاً لبعض الصفات قيل له القول في هذه الصفة التي ينفيها كالقول فيما أثبته ، فإن كان هذا تجسيماً وقولاً باطلاً فهذا كذلك ، وإن قلت : أنا أثبت هذا على الوجه الذي يليق بالرب . قيل له : وكذلك هذا كذلك . وإن قلت : أنا أثبته وأنفي التجسيم قيل ذلك وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين وإن ممن يثبت الأسماء وينفي الصفات كالمعتزلة قيل له في الصفات ما يقوله هو في الأسماء ، فإذا كان يثبت حياً عالماً قادراً وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسماً ، كان ممن لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة . قيل له : فلا بد أن تثبت موجوداً قائماً بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً ، وإن قال لا أسميه باسم لا إثبات ولا نفي . قيل له : سكوتك لا ينفي الحقائق ولا واسطة بين النفي والإثبات ، فإما أن يكون حقاً ثابتاً موجوداً ، وإما أن يكون باطلاً معدوماً ، وأيضاً فإن كنت لم تعرفه فأنت جاهل فلا تتكلم ، وإن عرفته فلا بد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به مثل أن يقول : رب العالمين ، أو القديم الأزلي . أو الموجود بنفسه ونحو ذلك .

وحينئذ فقد أثبت حياً موجوداً قائماً بنفسه وأثبته فاعلاً ، وأنت لا تعرف ما هو كذلك إلا الجسم ، وإن قدر أنه جاحد له قيل له : فهذا الوجود مشهود ، فإن كان قديماً أزلياً موجوداً بنفسه فقد يثبت جسم قديم أزلي موجود بنفسه وهو ما فررت منه ، وإن كان مخلوقاً مصنوعاً فله خالق خلقه ، ولا بد أن يكون قديماً أزلياً ، فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم الأزلي على كل تقدير ، وهذا مبسوط غير هذا الموضع .

وهنا قد نبهنا على ذلك ، وأنه كل من بنى تنزيهه للرب عن النقائص والعيوب على نفي الجسم ، فإنه لا يمكنه أن ينزهه عن عيب أصلاً بهذه الحجة ، وكذلك من جعل عمدته نفى التركيب .

ومن تدبر ما ذكروه في كتبهم تبين له أنهم لم يقيموا حجة على وجوده ، فلا

هم أثبتوه وأثبتوا له ما يستحقه ، ولا نزهوه ونفوا عنه ما لا يجوز عليه ، إذ كان إثباته هو إثبات حدوث الجسم ، ولم يقيموا على ذلك دليلاً ، والنفي اعتمدوا فيه على ذلك ، وهم متناقضون فيه لو كانوا أقاموا دليلاً على نفي كونه جسماً ، فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلاً وتناقضوا .

مصير من خرج عن الكتاب

وهذا مما يتبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة، فليس معه علم لا عقلي ولا سمعي ، لا سيما في هذا المطلوب الأعظم ، لكنهم قد يكونون معتقدين لعقائد صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية وبما سمعوه من القرآن ودين المسلمين ، فقلوبهم تثبت ما تثبت وتنفي ما تنفي بناء على هذه الفطرة المكملة بالشرعة المنزلة ، لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية وليس فيها علم أصلاً ، ولكن يستفاد من كلاهمهم إبطال بعضهم لقول المبطل الآخر وبيان تناقضه ، ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة في الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم ، كما فعل القاضي أبو بكر في هداية المسترشدين وغيره ، فلم يقيموا حجة على أولئك المبطلين ، وردوا كثيراً مما يقول اليهود بأنه تجسيم ، وقد كان اليهود عند النبي ﷺ بالمدينة وكانوا أحياناً يذكرون له بعض الصفات كحديث الحبر ، وقد ذمَّ الله اليهود على أشياء كقولهم : إن الله فقير وأن يده مغلولة . وغير ذلك . ولم يقل النبي ﷺ قط أنهم يجسمون ولا أن في التوراة تجسيماً ولا عابهم بذلك ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفاة ، فبين أن هذه الطريقة مخالفة للشرع وللعقل ، وأنها مخالفة لما بعث الله به رسوله ولما فطر عليه بعاده ، وأن أهلها من جنس الذين قالوا : ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**﴾[1] .

وقد بينا في غير هذا الموضع فساد ما ذكره الرازي من أن طريقة الوجوب

---

(١) سورة الملك ١٠ .

والإمكان من أعظم الطرق وبينا فسادها ، وأنها لا تفيد علماً وأنهم لم يقيموا دليلاً على إثبات واجب الوجود وأن طريقة الكمال أشرف منها ، وعليها اعتماد العقلاء قديماً وحديثاً وهو قد اعترف في آخر عمره بأنه قد تأمل الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما وجدها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ، ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن ، وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلكها أحد قبل ابن سينا ، وهو أخذها من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى محدث وقديم ، فقسمه هو إلى واجب وممكن ، ليمكنه القول بأن الفلك ممكن مع قدرته وخالف بذلك عامة العقلاء من سلفه وغير سلفه وخالف نفسه ، فإنه قد ذكر في المنطق ما ذكره سلفه من أن الممكن لا يكون إلا محدثاً ، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

صفة الكلام

(ثم) إن هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة انتهت بهم إلى قول فرعون فإن فرعون جحد الخالق وكذب موسى في أن الله كلمه ، وهؤلاء ينتهي قولهم إلى جحد الخالق ، وإن أثبتوه قالوا : أنه لا يتكلم ولا نادى أحداً ولا ناجاه ، وعمدتهم في نفي ذاته على نفي الجسم . وفي نفي كلامه وتكليمه لموسى على أنه لا تحله الحوادث . فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل فحقيقة قولهم تناقض شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإن الرسول هو المبلغ لرسالة مرسله . والرسالة هي كلامه الذي بعثه به . فإذا لم يتكلم متكلماً لم تكن رسالة ، ولهذا اتفق الأنبياء على أن الله يتكلم . ومن لم يقل إنه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً يقوم بذاته لم يقل إنه يتكلم . والنفاة منهم من يقول :

الكلام صفة فعل ، بمعنى أنه مخلوق بائن عنهم ، ومنهم من يقول هو صفة ذات ، بمعنى أنه كالحياة يقوم بذاته ، وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته وكل طائفة مصيبة في إبطال باطل الأخرى .

والدليل يقوم على أنه صفة ذات ، وفعل تقوم بذات الرب . والرب يتكلم

بمشيئته وقدرته ، فأدلة من قال إنه صفة فعل كلها إنما تدل على أنه يتكلم بقدرته ومشيئته ، وهذا حق وأدلة من قال إنه صفة ذات إنما تدل على أن كلامه يقوم بذاته وهذا حق ، وأما من أثبت أحدهما كمن قال إن كلامه مخلوق ، أو قال إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، فهؤلاء في الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم ، ولا أثبتوا له كلاماً ، ولهذا يقولون ما لا يعقل ، هذا يقول إنه معنى واحد قام بالذات ، وهذا يقول حروف ، أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته ، وهذا يقول مخلوق بائن عنه .

ولهذا لما أظهر لطائفة من أتباعهم ما في قولهم من الفاسد ، ولم يعرفوا عين هذه الأقوال الثلاثة ، حاروا وتوقفوا وقالوا : نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن القرآن كلام الله ، وأما كونه مخلوقاً أو بحرف وصوت أو معنى قائم بالذات فلا نقول شيئاً من هذا ، ومعلوم أن الهدى في هذه الأصول ومعرفة الحق فيها ، ومعرفة ما جاء به الرسول وهو الموافق لصريح المعقول أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم ، لا سيما والقلوب تطلب معرفة الحق في هذه بالفطرة ، ولما قد رأوا من اختلاف الناس فيها . وهؤلاء يذكرون هذا الموقف في عقائدهم وفيما صنفوه في أصول الدين ، كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين بمصر والشام ، قد صنفوا في أصول الدين ما صنفوه ، ولما تكلموا في مسألة القرآن ، وهل هو مخلوق ، أو قديم أو هو الحروف والأصوات ، أو معنى قائم بالذات ، نهوا عن هذه الأقوال ، وقالوا : الواجب أن يقال ما قاله المسلمون كلهم : أن القرآن كلام الله ويمسك عن هذه الأقوال ، وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك ، ولهم رغبة في العلم والهدى والدين ، وهم من أحرص الناس على معرفة الحق في ذلك وغيره ، لكن لم يعلموا إلا هذه الأقوال الثلاثة ، قول المعتزلة ، والكلابية ، والسالمية ، وكل طائفة تبين فساد قول الأخرى ، وفي كل قول من الفساد ما يوجد الامتناع من قبوله ، ولم يعلموا قولاً غير هذه فرضوا بالجهل البسيط ، وكان أحب إليهم من الجهل المركب ، وكان أسباب ذلك أنهم

وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم ، وهو الاستدلال على حدوث الأجسام ، وحدوث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع كما سلكها من ذكرته من أجلاء شيوخ أهل العلم والدين ، والاستدلال على إمكانها بكونها مركبة كما سلك الشيخ الآخر ، وهذا ينفي عن الواجب أن يكون جسماً بهذه الطريقة وذلك نفي عنه أنه جسم بتلك الطريقة ، وحذاق النظار الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعظم نظراً واستدلالاً بها وبغيرها قد عرفوا فسادها ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والله سبحانه قد أخبر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، والله سبحانه يجزي الإنسان بجنس عمله ، فالجزاء من جنس العمل ، فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه فإن كان قد قدح فيهم ، ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ، ابتلي في عقله وعلمه وظهر من جهله ما عوقب به ، ومن قال عنهم إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه . ومن قال : إنهم جهال أظهر الله جهله . ففرعون ، وهامان ، وقارون ، لما قالوا عن موسى أنه ساحر كذاب ، أخبر الله بذلك عنهم في قوله : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب** ﴾[1] وطلب فرعون إهلاكه بالقتل وصار يصفه بالعيوب كقوله : ﴿ **وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد** ﴾[2] وقال : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾[3] أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله وأدلة غاية الإذلال ، وأعجزه عن الكلام النافع ، فلم يبين حجة ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل كان يسمى أبا الحكم ، ولكن النبي ﷺ سماه : أبا جهل ، وهو كما سماه رسول الله ﷺ ، أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة غافر ٢٤ ـ ٢٥ .   (٢) سورة غافر ٢٦ .   (٣) سورة الزخرف ٥٢ .

(والـذين) قالـوا عن الرسـول أنه أبـتر ، وقصدوا أنـه يمـوت فينقـطع ذكـره عوقبوا بـانبتارهم كـما قال تعـالى : ﴿ **إن شانئـك هو الأبتر** ﴾[1] فلا يوجد من شنـأ الـرسول إلا بتـره الله . حتى أهـل البـدع المخـالفـون لسننـه . قيـل لأبي بكـر بن عياش : إن بالمسجد قوماً يجلسون للناس ويتكلمون بـالبدعـة . فقال : من جلس **للناس جلس الناس إليـه، لكن أهل السنـة يبقون ويبقى ذكـرهم، وأهل البـدعة يموتون ويموت ذكرهم .**

الجهمية

وهؤلاء المشبهـون **لفرعـون الجهمية** نفـاة الصفات الـذين وافقوا فـرعـون في جحـده ، وقالـوا : إنه ليس فـوق السموات وأن الله لم يكلم مـوسى تكليـماً ، كـما قال فرعون : ﴿ **يا هامان ابن لي صـرحاً لعـلي أبلغ الأسباب [أَسْبَابَ] السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً** ﴾[2] وكان فرعون جاحداً للرب فلولا أن موسى أخبره أن ربـه فوق العـالم ، لما قـال أطلع إلى إله مـوسى وإني لأظنه كـاذبـاً قـال تعـالى : ﴿ **وكـذلك زين لفـرعون سـوء عمله وصد عن السبيـل وما كيـد فـرعـون إلا في تباب** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وقال فـرعون يـا أيها المـلأ ما علمت لكم من إلـه غيري فـاوقد لي يـا هامـان على الـطين فاجعـل لي صرحـاً لعلي أطلع إلى إلـه مـوسى وإني لأظنه من الكاذبين واستكبر هـو وجنوده في الأرض بغـير الحق وظنوا أنهم إلينـا لا يـرجعون . فـأخذنـاه وجنوده فنبـذناهم في اليم فـانظر كيف كـان عاقبـة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار يوم القيامة لا ينصـرون وأتبعناهم في هـذه الدنيـا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾[4] .

ومحمـد ﷺ لما عـرج به إلى ربـه وفرض عليـه الصلوات الخمس ، ذكـر أنـه رجـع إلى موسى ، وأن مـوسى قال لـه ارجع إلى ربـك فسله التخفيف إلى أمتك ،

---

(١) سورة الكوثر ٣.
(٢) سورة غافر ٣٦ ـ ٣٧.
(٣) سورة غافر ٣٧.
(٤) سورة القصص ٣٨ ـ ٤٢.

كما تواتر هذا في أحاديث المعراج ، فموسى صدق محمداً في أن ربه فوق ، وفرعون كذب موسى في أن ربه فوق ، فالمقرون بذلك متبعون لموسى ومحمد ، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون .

وهذه الحجة مما اعتمد عليها غير واحد من النظار ، وهي مما استمد عليه أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة ، وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية ، على أن الله فوق العالم وقال في أوله :

فإن قال قائل : أنكرتم قول الجهمية والقدرية والخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة ، فعرفونا قوللكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا وما جاء عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون ، فإنه الإمام الكامل والرئيس الفاضل الذي أبان الله به الحق ، وأوضح به المناهج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمه الله من إمام مقدم وكبير مفهم وعلى جميع أئمة المسلمين ، وذكر جملة الاعتقاد والكلام على علو الله على العرش وعلى الرؤية ، ومسألة القرآن ونحو ذلك . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن **المعطلة نفاه الصفات** أو نفاة بعضها ، لا يعتمدون في ذلك على ما جاء به الرسول إذ كان ما جاء به الرسول إنما يتضمن الإثبات لا النفي ، لكن يعتمدون في ذلك على ما يظنونه أدلة عقلية ويعارضون بذلك ما جاء به الرسول ، وحقيقة قولهم إن الرسول لم يذكر في ذلك ما يرجع إليه لا من سمع ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب في ذلك على زعمهم بخلاف غير هذا ، فإنهم معترفون بأن الرسول ذكر في القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب وعلى صدق الرسول ، وقد يقولون أيضاً أنه أخبر بالمعاد ، لكن نفوا الصفات لما رأوا أن ما ذكروه من النفي

لم يذكره الرسول ، فلم يخبر به ولا ذكر دليلاً عقلياً عليه ، بل إنما ذكر الإثبات وليس هو في نفس الأمر حقاً ، فأحوج الناس إلى التأويل أو التفويض ، فلما نسبوا ما جاء به الرسول إلى أنه ليس فيه لا دليل سمعي ولا عقلي ، لا خبر يبين الحق ، ولا دليل يدل عليه ، عاقبهم الله بجنس ذنوبهم ، فكان ما يقولونه في هذا الباب خارجاً عن العقل والسمع مع دعواهم أنه من العقليات البرهانية ، فإذا اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية من جنس شبهات أهل السفسطة والإلحاد الذين يقدحون في العقليات والسمعيات ، وأما السمع فخلافهم له ظاهر لكل أحد ، وإنما يظن من يعظمهم ويتبعهم أنهم أحكموا العقليات ، فإذا حقق الأمر وجدهم كما قال أهل النار : ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير** ﴾[1] .

وكما قال تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾[2] .

فلما كان حقيقة قولهم : أن القرآن والحديث ليس فيه في هذا الباب دليل سمعي ولا عقلي ، سلبهم الله في هذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية ، حتى كانوا من أضل البرية مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين ، وهذا ميراث فرعون وحزبه اللعين .

فرعون أول من أظهر التعطيل

وقد قيل : إن أول من عرف أنه أظهر في الإسلام التعطيل الذي تضمنه

(١) سورة الملك ١٠ .　　(٢) سورة النور ٣٩ ـ ٤٠ .

قول فرعون ، هو الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسري وقال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، إني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه وشكر له علماء المسلمين ما فعله كالحسن البصري وغيره ، وهذا الجعد إليه ينسب مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية ، وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة ، فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم ، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ، ظهر فيها النفاق والزندقة التي هي باطن أمرهم وهو حقيقة قول فرعون : إنكار الصانع وإنكار عبادته وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض ، فكانوا خيارهم وأقربهم إلى الإسلام الرافضة ، وظهر بسببهم الرفض والإلحاد حتى كان من كان ينزل الشام مثل بني حمدان العالية ونحوهم متشيعين ، وكذلك من كان من بني بويه في المشرق .

مذهب ابن سينا

وكان ابن سينا وجهل بيته من أهل دعوتهم . قال : وبسبب ذلك اشتغلت في الفلسفة ، وكان مبدأ ظهورهم من حين تولى المقتدر ، ولم يكن بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ، ولهذا سمي حينئذ بأمير المؤمنين الأموي الذي كان بالأندلس ، وكان قبل ذلك لا يسمى بهذا الاسم . ويقول : لا يكون للمسلمين خليفتان ، فلما ولي المقتدر قال : هذا صبي لا تصح ولايته فسمي بهذا الاسم .

وكان بنو عبيد الله القداح الملاحدة يسمون بهذا الاسلام ، لكن هؤلاء كانوا في الباطن ملاحدة زنادقة منافقين ، وكان نسبهم باطلاً كدينهم ، بخلاف الأموي والعباسي فإن كلاهما نسبه صحيح وهم مسلمون كأمثالهم من خلفاء المسلمين .

فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم

الأعداء ، فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة ، وأخذوا الثغور الشامية شيئاً بعد شيء إلى أن أخذوا بيت المقدس ، **في أواخر المائة الرابعة ، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوا حال بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة إلى أن تولى** نور الدين الشهيد، وقام بما قام به من أمر الإسلام والطهارة ، والجهاد لأعدائه ، ثم استنجد به ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فأنجدهم ، وجبت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بني عبيد ، أخذها صلاح الدين يوسف بن سادي وخطب بها لبني العباس ، فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدي المنافقين المرتدين عن دين الإسلام مائة سنة .

فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سبباً لخير الدنيا والآخرة ، وبالعكس البدع والإلحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة .

فلما ظهر في الشام ومصر والجزيرة الالحاد والبدع سلط عليهم الكفار ، ولما أقاموا ما أقاموه من الإسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار تحقيقاً لقوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾[1] .

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالإسلام ، وكانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم ، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والإلحاد والفجور ، سلط عليهم الكفار قال تعالى : ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء**

---

(١) سورة الصف ١٠ ـ ١٣ .

وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنـا أولي بأس شـديد فجـاسوا خـلال الديـار وكان وعـداً مفعولا . ثم رددنـا لكم الكرة عليهم وأمـددناكم بـأموال وبنـين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسـأتم فلها فـإذا جاء وعـد الآخرة ليسـوؤا وجوهكم وليـدخلوا المسجد كـما دخلوه أول مرة وليتبـروا ما علو تتبيـرا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾[1] .

وكـان بعض المشايـخ يقول : هـولاكو ملك التـرك التتار الـذي قهر الخليفـة بـالعراق وقتـل ببغداد مقتلة عـظيمة جـداً ، يقال قتـل منهم ألف ألف ، وكذلـك قتـل بحلب دار الملك حينئذ . كـان بعض الشيوخ يقـول : هو للمسلمـين بمنـزلـة بخت نصر لبني إسرائيل .

وكـان من **أسباب دخـول هؤلاء ديـار** المسلمـين : ظهـور الإلحــاد والنفـاق والبـدع ، حتى أنـه صنف الـرازي كتـابـاً في عبـادة الكـواكب والأصنـام وعمــل السحر ، سماه « السر المكتوم في السحر ومخـاطبة النجـوم » ويقال : إنـه صنفه لأم السلطان عـلاء الدين محمـد بن لكش بن جلال الـدين خـوارزم شـاه ، وكـان من أعـظم ملوك الأرض ، وكان للرازي بـه اتصال أخـوي ، حتى أنه وصى إليـه عـلى أولاده ، وصنف له كتاباً سماه الرسالة العلائية في الاختيارات السماوية .

وهـذه الاختيـارات لأهـل الضـلال بـدل الاستخـارة التي علمهـا النبي ﷺ المسلمين ، كما قال جابـر في الحديث الصحيـح الذي رواه البخـاري وغيره ، كـان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخـارة في الأمور كلهـا ، كما يعلمنـا السورة من القـرآن يقـول : « إذا هم أحدكم بـالأمر فليـركـع ركعتـين من غـير الفـريضـة ثم ليقـل : اللهم إني استخيـرك بعلمك وأستقـدرك بقدرتـك وأسـألـك من فضلك العـظيم . اللهم إن كنت تعلم أن هـذا الأمـر ـ وتسميـه بـاسمـه ـ خـير لي في ديني ومعــاشي وعـاقبة أمـري فاقـدره لي ويسره ثم بـارك لي فيـه . وإن كنت تعلم أن هـذا الأمـر

---

(١) سورة الإسراء ٤ ـ ٨.

شر لي في دين ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به » .

(**وأهل النجوم**) **لهم اختيارات** ، إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلاً أخذ طالعاً سعيداً فعمل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم ، وقد صنف الناس كتاباً في الرد عليهم ، وذكروا كثرة ما يقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به ، وكم يخبرون من خبر فيكون كذباً . وكم يأمرون باختيار فيكون شراً ، والرازي صنف الاختيارات لهذا الملك .

وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك ، كما ذكر في السر المكتوم في عبادة الكواكب ودعوتها مع السجود لها والشرك بها ودعائها مثل ما يدعو الموحدون ربهم بل أعظم ، والتقرب إليها بما يظن أنه مناسب لها من الكفر والفسوق والعصيان ، فذكر أنه يتقرب إلى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله ، وهذا في نفس الأمر يقرب إلى الشياطين الذين يأمرونهم بذلك ، ويقولن لهم : إن الكوكب نفسه يحب ذلك ، وإلا فالكواكب مسخرات بأمر الله مطيعة لله لا تأمر بشرك ولا غيره من المعاصي .

ولكن الشياطين هي التي تأمر بذلك ويسمونها **روحانية الكواكب** ، وقد يجعلونها ملائكة وإنما هي شياطين ، فلما ظهر بأرض المشرق نسب مثل هذا الملك ونحوه ومثل هذا العالم ونحوه ما ظهر من الإلحاد والبدع ، سلط الله عليهم الترك المشركين الكفار فأبادوا هذا الملك ، وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ، ويعلم تحقيق ما أخبر الله به في كتابه حيث يقول : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[1] أي أن القرآن حق وقال : ﴿ **سأريكم آياتي فلا تستعجلون** ﴾[2] وبسط هذا له موضع آخر .

---

(١) سورة فُصِّلت ٥٣ .　　(٢) سورة الأنبياء ٣٧ .

سبب انقراض الدولة الأموية

والمقصود هنا أن دولة بني أمية ، **كان انقراضها** بسبب هذا الجعد المعطل وغيره من الأسباب التي وجبت إدبارها ، وفي آخر دولتهم ظهر الجهم ابن صفوان بخراسان . وقد قيل : إن أصله من ترمذ ، وأظهر قول المعطلة النفاة الجهمية وقد قتل في بعض الحروب .

وكان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قوله من علماء الحجاز والشام والعراق . ولهذا يوجد لعبد الله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام في الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم ، مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم ، ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق ، لكن قوى أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه .

ثم لما ولي الخلافة : اجتمع بكثير من هؤلاء ودعا إلى قولهم في آخر عمره وكتب إلى بغداد وهو (**بالثغر بطرسوس** التي ببلد[السوس]، وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد ، ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ويرابطون بها ، رابط بها الإمام أحمد رضي الله عنه والسري السقطي . وغيرهما ، وتولى قضاءها أبو عبيد ، وتولى قضاءها أيضاً صالح بن أحمد بن حنبل . ولهذا ذكرت في كتب الفقه كثيراً ، فإنها كانت ثغراً عظيماً .

فكتب من الثغر إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب كتاباً يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا : (**القرآن مخلوق**) فلم يجبه أحد ، ثم كتب كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يجبه وإرساله إليه ، فأجاب أكثرهم ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد ، وبقي إثنان لم يجيبا : الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح . فأرسلوهما إليه ، فمات قبل أن يصلا إليه ثم أوصى إلى أخيه أبي إسحاق .

وكان هذا سنة ثمان عشرة ومائتين ، وبقي أحمد في الحبس إلى سنة عشرين ، فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ، ثم لما خافوا الفتنة

ضربوه وأطلقوه ، وظهر مذهب النفاة الجهمية وامتحنوا الناس ؛ فصار من أجابهم أعطوه وإلا منعوه العطاء وعزلوه من الولايات ولم يقبلوا شهادته ، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير ، فإن أجابهم افتدوه وإلا لم يفتدوه .

وكتب قاضيهم أحمد بن أبي داود على ستارة الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم . لم يكتب وهو السميع البصير .

ثم ولي الواثق واشتد الأمر إلى أن ولي المتوكل فرفع المحنة ، وظهرت حينئذ السنة . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن أئمة المسلمين لما عرفوا حقيقة قول الجهمية بينوه حتى قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية وكان ينشد :

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقيل له : بماذا يعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . قيل له : بحد . قال : بحد .

وكذلك قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم بن راهويه وعثمان ابن سعيد الدارمي وغيرهم من أئمة السنة .

وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون ، وهو جحد الخالق وتعطيل كلامه ودينه كما كان فرعون يفعل ، فكان يجحد الخالق جل جلاله ويقول : ﴿**ما علمت لكم من إله غيري**﴾[1] ويقول لموسى : ﴿ **لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين** ﴾[2] ويقول: ﴿ **أنا ربكم الأعلى**﴾[3] وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى ، أو لا يكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد أن يبطل عبادة الله وطاعته ، ويكون هو المعبود المطاع .

---

(١) سورة القصص ٣٨ . (٢) سورة الشعراء ٢٩ . (٣) سورة النازعات ٢٤ .

فلما كان قول الجهمية المعطلة النفاة يؤول إلى قول فرعون ، كان منتهى قولهم إنكار رب العالمين ، وإنكار عبادته ، وإنكار كَلامه حتى ظهروا بدعوى التحقيق والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون : العالم هو الله ، والوجود واحد ، والموجود القديم الأزلي الخالق ، هو الموجود المحدث المخلوق ، والرب هو العبد ما ثم رب وعبد وخالق ومخلوق ، بل هو عندهم فرقان ، ولهذا صاروا يعيبون على الأنبياء وينقصونهم ، يعيبون على نوح وعلى إبارهيم الخليل وغيرهما ، ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات ، وجميع الأصنام . ولا يرضون بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا : إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله وأن الله نفسه هو العابد وهو المعبود وهو الموجود كله ، فجحدوا الرب وأبطلوا دينه وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسله وتكليمه لموسى وغيره .

وقد ضل في هذا جماعة ولهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف المناسب لذلك ، كابن سبعين والصدر القونوي تلميذ ابن عربي والبلياني والتلمساني وهو من حذاقهم علماً ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل ، فيشرب الخمر ويأتي المحرمات .

وحدثني الثقة : أنه قرأ عليه نصوص الحكم لابن عربي ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يخالف القرآن . قال : فقلت له هذا الكلام يخالف القرآن . فقال : القرآن كله شرك . وإنما التوحيد في كلامنا ، وكان يقول : ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول .

وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له ، فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم . فقال له رفيقه : هذا أيضاً هو ذات الله . فقال : وهل ثم شيء خارج عنها نعم الجميع في ذاته .

وهؤلاء حقيقة قولهم : هو قول فرعون، لكن فرعون ما كان يخالف أحداً فينافقه ثم يثبت الخالق ، وإن كان في الباطن مقراً به وكان يعرف أنه ليس هو

إلا مخلوق ، لكن حب العلو في الأرض والظلم دعاه إلى الجحود والإنكار كما قال : **﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾**[1] .

وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين ، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ، ومن وجه هم ضلال يحسبون أنهم على حق وأن الخالق هو المخلوق ، فإن كان قولهم هو قول فرعون لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد ، وهؤلاء : إما جهال ضلال وإما منافقون مبطنون الإلحاد والجحود ، ويوافقون المسلمين في الظاهر .

وحدثني الشيخ عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم ، وكان من أصدق الناس ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاماً : أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسي ، يطلب منه المعرفة والعلم . قال : فدعاني إلى هذا المذهب . فقلت له : قولكم يشبه قول فرعون . قال : ونحن على قول فرعون . فقلت لعبد السيد : واعترف لك بهذا . قال : نعم . وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب . فقلت له : هذا مذهر فاسد وهو يؤول إلى قول فرعون ، فحدثني بهذا . فقلت له : ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون ، لكن مع قرار الخصم ما يحتاج إلى بينة .

قال عبد السيد : فقلت له : لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون . فقال : ولم ؟ قلت : لأن موسى أغرق فرعون ، فانقطع واحتج عليه بالظهور الكوني . فقلت لعبد السيد وكان هذا قبل أن يسلم : نفعتك اليهودية ، يهودي خير من فرعوني .

وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه ، وهم يحسبون أنه حق وعامتهم الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله وأنه أفضل الخلق

---

(١) سورة النمل ١٣ - ١٤ .

أفضل من جميع الأنبياء والأولياء ، لا يفهمون حقيقة قولهم بل يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون في حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ، من جنس الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني والسري السقطي والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله وأمثال هؤلاء .

وأما عرافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك ، ويقولون ما يقول ابن عربي ونحوه أن الأولياء أفضل من الأنبياء وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وأن جميع الأنبياء يتفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء ، وأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يأتي خاتم الأنبياء ، فإنهم متجهمة متفلسفة يخرجون أقوال الفلسفة والجهمية في قالب الكشف .

وعند المتفلسفة أن جبريل إنما هو خيال في نفس النبي ليس هو ملكاً يأتي من السماء ، والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الأولياء في زعمهم ، فإنه يأخذ من العقل المجرد الذي يأخذ منه الخيال ، فهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول ، وهم يعظمون فرعون ويقولون ما قاله صاحب النصوص .

قال : ولما كان فرعون في منصف التحكم صاحب الوقت وإن جاز في العرف الناموسي لذلك قال : ﴿ **أنا ربكم الأعلى**﴾[1] أي وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم . قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له بذلك ، وقالوا له : اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . قال : فصح قول فرعون : أنا ربكم الأعلى . وإن كان فرعون عين الحق .

---

(١) سورة النازعات ٢٤ .

وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم : أن أبغض الناس إليهم محمد بن عبد الله ﷺ . قال : وإذا نهق الحمار ، ونبح الكلب ، سجدوا له وقالوا : هذا هو الله ، فإنه مظهر من المظاهر ، وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اكتمواعنه. قال : فقالوال لي : محمد نبغضه فإنه أظهر الفرق ودعا إليه وعاقب من لم يقل به . قال : فتناقضوا في مذهبهم الباطل وجعلوا الكلب والحمار ، أفضل من أفضل الخلق . قال لي : وهم يصرحون باللعنة له ولغيره من الأنبياء ، ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فسلوا الله من فضله ، فإنها رأت ملكاً . وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً » فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت ، فيكون سجودهم للشياطين.

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقاً ، لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الأنبياء وقد صنف كتاباً سماه [**فك الأزرار عن أعناق الأسرار**] ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس وأنه قال له ما معناه : إنكم قد غلبتموني وقهرتموني ونحو هذا ، لكن جرت لي قصة تعجبت منها مع شيخ منكم فإني تجليت له . فقلت : أنا الله لا إله إلا أنا فسجد لي ، فتعجبت كيف سجد لي . قال هذا الشيخ فقلت له : ذاك أفضلنا وأعلمنا وأنت لم تعرف قصده ، ما رأى في الوجود اثنين ، وما رأى إلا واحداً فسجد لذلك الواحد لا يميز بين إبليس وغيره ، فجعل هذا الشيخ ذاك الذي سجد لإبليس لا يميز بين الرب وغيره ، بل جعل إبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم .

مقالة ابن عربي في المرسلين

ولهذا عاب **ابن عربي نوحاً** أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين ، وأنجاه ومن معه في السفينة وأهلك سائر أهل الأرض لما كذبوه ، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعظم قومه الكفار

الذين عبدوا الأصنام ، وأنهم ما عبدوا إلا الله وأن خطاياهم خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله ، وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكفار . كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهرون وغيرهم ، ومدح عباد العجل وتنقص هرون وافترى على موسى فقال : وكان موسى أعلم بالأمر من هرون لأنه علم ما عبده أصحاب العجل ، لعلمه بأن الله قد قضى أن لا يعبد إلا إياه ، وما قضى الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هرون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء ، فذكر عن موسى أنه عتب على هرون أنه أنكر عليهم عبادة العجل ، وأنه لم يسمع ذلك فلم ينكره ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء بل يراه عين كل شيء .

وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهرون وعلى الله وعلى عباد العجل ، فإن الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل إنكاراً أعظم من إنكار هرون ، وأنه أخذ بلحية هرون لما لم يدعهم ويتبع موسى لمعرفة قال تعالى : ﴿ **وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري ، فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ، أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت أمري . قال يا ابن أُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي** ﴾[1] .

---

(١) سورة طه ٨٣ ـ ٩٤.

قلت لبعض هؤلاء : هذا الكلام الذي ذكره هذا عن موسى وهارون يوافق القرآن أو يخالفه . فقال : لا بل يخالفه . قلت : فاختر لنفسك إما القرآن ، وإما كلام ابن عربي وكذلك قال عن نوح . قال : لو أن نوحاً جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه ، أي ذكر لهم فدعاهم جهاراً ثم دعاهم إسراراً إلى أن قال : ولما علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو لأنه ما عدم من البداية ، فيدعى إلى الغاية ادعوا إلى الله ، فهذا عين المكر على بصيرة فنبه أن الأمر كله لله . فأجابوه مكراً كما دعاهم . فجاء المحمدي وعلم أن الدعوة إلى الله ما هي من حيث هويته ، وإنما هي من حيث أسماؤه فقال :

﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً** ﴾[1] فجاء بحرف الغاية وقرنها بالاسم ، فعرفنا أن العالم كان تحت حيطة اسم إلهي أوجب عليهم أن يكونوا متقين . فقالوا في مكرهم : ﴿ **لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾[2] فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق في كل معبود وجهاً يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله .

كما قال في المحمديين : ﴿ **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾[3] أي حكم ، فالعارف يعرف من عبد وفي أي صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء في الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله في كل معبود .

وهو دائماً يحرف القرآن عن مواضعه كما قال في هذه القصة : ﴿ **مما خطاياهم** ﴾ فهي التي خطت بهم ، فغرقوا في بحار العلم بالله وهي الحيرة ، فادخلوا ناراً في عين الماء في المحمديين : ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾[4] سجرت التنور : أوقدته فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، فكان الله عين أنصارهم

---

(1) سورة مريم ٨٦.

(2) سورة نوح.

(3) سورة الإسراء ٢٣ .

(4) سورة التكوير ٦ .

فهلكوا فيه إلى الأبد . وقوله ﴿ **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه** ﴾[1] بمعنى أمر وأوجب وفرض .

وفي القراءة الأخرى : ﴿ **ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه** ﴾ فجعل معناه أنه قدر وشاء أن لا تعبدوا إلا إياه وما قدره فهو كائن ، فجعل معناها كل معبود هو الله وأن أحداً ما عبد غير الله قط ، وهذا من أظهر الفرية على الله ، وعلى كتابه وعلى دينه وعلى أهل الأرض ، فإن الله في غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله ، بل يعبدون الشيطان . كما قال تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون** ﴾[2] .

وقال تعالى عن يوسف أنه قال : ﴿ **يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين** ﴾[4] .

وقال تعالى عن الخليل : ﴿ **إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال سلام**

---

(١) سورة الإسراء ٢٣ .

(٢) سورة يس ٦٠ ـ ٦٢ .

(٣) سورة يوسف ٣٩ ـ ٤٠ .

(٤) سورة الأعراف ١٣٨ ـ ١٣٩ .

عليك سأستغفر لك ربي إنـه كان بي حفيـاً . وأعتزلكم ومـا تدعـون من دون الله وأدعـو ربي عسى أن لا أكون بـدعـاء ربي شقيـاً . فلما اعتـزلهم ومـا يعبـدون من دون الله وهبنـا له إسحـاق ويعقـوب وكـلا جعلنـا نبيـاً . ووهبنـا لهم من رحمتنـا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾[1] .

فهـو سبحانـه يقول : ﴿ **فلما اعتـزلهم ومـا يعبـدون من دون الله** ﴾ وهؤلاء الملحدون يقولون : ما عبدنا غير الله في كل معبود .

وقـال تعالى : ﴿ **واتخـذ قوم مـوسى من بعـده من حليِّهم عجـلاً جسـداً لـه خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيـلا** ﴾ اتخذوه وكـانوا ظـالمين ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : ﴿ **لئن لم يـرحمنا ربنـا ويغفر لنـا لنكونن من الخاسرين** ـ إلى قـوله ـ **إن الـذين اتخذوا العجـل سينالهم غضب من ربهم وذلـة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾[2] .

قال أبو قلابة : هي لكل مفتر إلى يوم القايمة أن يذله الله .

والجهمية النفاة كلهم مفتـرون . كـما قـال الإمـام أحمـد بن حنبـل : إنمـا يقـودون قـولهم إلى فـريـة عـلى الله وهؤلاء من أعـظمهم افتـراء عـلى الله ، فـإن القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراء ممن يقـول : أنه يحـل فيـه وهؤلاء يجهلون من يقول بـالحلول ، أو يقول بـالاتحاد ، وهـو أن الخالق اتحـد مع الخلوق ، فإن هذا إنما يكون إذا كان شيئـان متباينـان ثم اتحد أحـدهما بـالآخر كـما يقولـه النصارى من اتحـاد اللاهـوت مع النـاسوت ، وهـذا إنمـا يقـال في شيء معين ، وهؤلاء عندهم ماثم وجود لغيـره حتى يتحد مـع وجوده ، وهم من أعـظم الناس تناقضاً فإنهم يقولون : ما ثـم غـير ولا سوى .

ويقـول : **السبعينيـة** ليس إلا الله بـدل قـول المسلمـين لا إلـه إلا الله ثم يقولون : هؤلاء المحجوبون لا يـرون هذا ، فـإذا كان مـاثم غير ولا سـوى ، فمن

---

(١) سورة مريم ٤٢ ـ ٥٣ . (٢) سورة الأعراف ١٥٢ .

المحجوب ومن الحاجب ، ومن الذي ليس بمحجوب وعما حجب ، فقد أثبتوا أربعة أشياء : قوم محجوبون ، وقوم ليسوا بمحجوبين ، وأمراً انكشف لهؤلاء ، وحجب عن أولئك .

فأين هذا من قولهم : ماثم إثنان ولا وجودان ، كما حدثني الثقة أنه قال للتلمساني : فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمه وبنته . قال : نعم الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم ، فقيل لهم فمن المخاطب للمحجوبين أهو هم أم غيرهم ، فإن كانوا هم فقد حرم على نفسه لما زعم أنه حرام عليهم دونه ، وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين ، وعندهم ماثم غير .

وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين . فإنه يقال : الوجود واحد ، كما يقال : الإنسانية واحدة ، والحيوانية واحدة . أي يعني واحد كلي ، وهذا الكلي لا يكون كلياً إلا في الذهن لا في الخارج ، فظنوا هذا الكلي ثابتاً في الخارج ثم ظنوه هو الله .

وليس في الخارج كلي مع كونه كلياً، وإنما يكون كلياً في الذهن ، وإذا قدر في الخارج كلي ، فهو جزء من المعينات وقائم بها ليس هو متميزاً قائماً بنفسه ، فحيوانية الحيوان وإنسانية الإنسان سواء قدرت معينة أو مطلقة ، هي صفة له ويمتنع أن يكون صفة الموصوف مبدعة له ، ولو قدر وجودها مجرداً عن العيان على رأي من أثبت المثل الأفلاطونية ، فتثبت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ويدعي أنها قديمة أزلية ، مثل إنسانية مجردة وحيوانية مجردة ، وهذا خيال باطل ، وهذا الذي جعله مجرداً هو مجرد في الذهن وليس في الخارج كلي مجرد ، وإذا قدر ثبوت كلي مجرد في الخارج وهو مسمى الوجود فهذا يتناول وجود المحدثات كلها كما يتناول وجود القديم ، وهذا لا يكون مبدعاً لشيء ولا اختصاص له بصفات الكمال ، فلا يوصف بأنه حي عليم قدير ، إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت ، والخالق لا بد أن يكون

حياً عليماً قديراً سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

ثم لو قدر أن هذا هو الخالق فهذا غير الأعيان الموجودة المخلوقة ، فقد ثبت وجودان . أحدهما غير الآخر ، وأحدهما محدث مخلوق ، فيكون الآخر الخالق غير المخلوق ، ولا يمكن جحد وجود الأعيان المعينة ، ولكن الواحد من هؤلاء قد تغيب عن شهود المغيبات كما يغيب عن شهود نفسه ، فيظن أن ما لم يشهده قد عدم في نفسه وفنى وليس كذلك ، فإن ما عدم وفنى شهوده له وعلمه به ونظره إليه ، فالمعدوم الفاني صفة هذا الشخص ، وإلا فالموجودات في نفسها باقية على حالها لم تتغير ، وعدم العلم ليس علماً بالمعدوم ، وعدم المشهود ليس شهوداً للعدم . ولكن هذه الحال يعتري كثيراً من السالكين يغيب أحدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات ، وقد يسمون هذا فناء واصطلاماً ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات لا أنها في نفسها فنيت ، ومن قال : فنى ما لم يكن وبقي ما لم يزل ، فالتحقيق إذا كان صادقاً أنه فنى شهوده لما لم يكن ونفى شهوده لما لم يزل لا إن ما لم يكن فنى في نفسه فإنه باق موجود ، ولكن يتوهمون إذا لم يشهده وأنه قد عدم في نفسه .

الاتحاد والحلول

ومن هنا دخلت طائفة في **الاتحاد والحلول** فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ويستغرق في ذلك ، فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ويفني ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت وأن نفسه فنيت ، حتى يتوهم أنه هو الله وأن الوجود هو الله .

ومن هذا الباب غلط أبي يزيد ونحوه حيث قال : ما في الجبة إلا الله ، وقد بسط هذا في هذا الموضع ، وبين أنه يعبر بالفناء عن ثلاثة أمور :

أحدها : أنه يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبته وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه ، وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه .

وهذا هو حقيقة التوحيد الذي بعث الله بـه الرسـل وأنزل بـه الكتب . وهو تحقيق شهـادة أن لا إله إلا الله فقـد فنى من قلبه التـأله لغـير الله ، وبقي في قلبـه تـألـه الله وحـده ، وفنى من قلبه حب غـير الله وخشيـة غـير الله ، والتـوكـل عـلى غـير الله ، وبقي في قلبه حب الله وخشية الله والتوكل عـلى الله ، وهذا الفنـاء يجامـع البقاء فيخلي القلب عن عبادة غير الله مع تجلي القلب بعبادة الله وحده .

كـما قال ﷺ لـرجل : « قـل أسلمت لله وتخليت » وهو تحقيق شهـادة أن لا إلـه إلا الله بالنفي مـع الإثبات ، نفي إلهيـة غيره مـع إثبات إلهيتـه وحده ، فـإنـه ليس في الـوجـود إلـه إلا الله ليس فيـه معبــود يستحق العبـادة إلا الله فيجب أن يكون هذا ثـابتاً في القلب ، فـلا يكون في القلب من يـألهه القلب ويعبـده إلا الله وحده ، ويخرج من القلب كـل تألـه لغير الله ، ويثبت فيـه تألـه الله ، وحده ، إذ كـان ، ليس ثم إله إلا الله وحـده ، وهذه الـولاية لله مقـرونة بـالبـراءة والعـداوة لكل معبود سواء ولمن عبدهم ، قـال تعالى عن الخليـل عليه السـلام : ﴿ **وإذا قال إبـراهيم لأبيه وقـومه إنني بـراءٌ مما تعبـدون ، إلا الذي فـطرني فـإنـه سيهـدين ﴾ وجعلها كلمة باقية في عقبة لعلهم يرجعون**[1] .

وقـال : ﴿ **أفرأيتم مـا كنتم تعبدون أنتم وآبـاؤكم الأقدمـون فإنهم عـدو لي إلا رب العالمين** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معـه إذ قالـوا لقـومهم إنا بـرآء منكم ومما تعبـدون من دون الله كفرنـا بكم وبـدا بيننـا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾[3] .

ايراد الشبه على مذهب أهل الحلول

قلت لبعض مـا خـاطبتــه من شيـوخ هؤلاء : قــول الخليـل إنني بــراء ممـا تعبـدون ممن تبرأ الخليـل . أتبـرأ من الله تعـالى وعنـدكم مـا عبـد غـير الله قط ،

(١) سورة الزخرف ٢٦ ـ ٢٨ . (٢) سورة الشعراء ٧٥ . (٣) سورة الممتحنة ٤ .

والخليل قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين ، وقد جعل الله لنا وفيمن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

قال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد** ﴾[1] .

وقد قال ﷺ : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وهذا تصديق قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾[3]

وقال سبحانه : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾[4].

قال طائفة من السلف : كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه .

وقد قال سبحانه : ﴿ **ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر** ﴾[5] .

والإله هو المألوه ، أي المستحق أن يؤله أي يعبد ، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل ، وفعال بمعنى مفعول ، مثل لفظ الركاب والحمال بمعنى المركوب والمحمول ، وكان الصحابة يرتجزون في حفر الخندق يقولون :

---

(١) سورة الممتحنة ٤ .
(٢) سورة الحج ٦٢.
(٣) سورة يونس ٣٢ .
(٤) سورة القصص ٨٧.
(٥) سورة القصص ٨٨.

هـذا الحـمـال لا حمـال خيبـر هـذا أبـر ربـنـا وأظـهـر

وإذا قيل : هذا هو الإمام ، فهو الذي يستحق أن يؤتم بـه ، كما قـال تعالى لإبـراهيم : ﴿ **إني جـاعلك للنـاس إمـامـاً قـال ومن ذريتي قـال لا ينـال عهـدي الظالمين** ﴾[1] فعهده بالإمامة لا ينـال الظالم ، فـالظالم لا يجـوز أن يؤتم به في ظلمه ولا يـركن إليه كـما قال تعـالى : ﴿ **ولا تركنـوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** ﴾[2] فمن ائتم بمن لا يصلح لـلإمامـة فقد ظلم نفسـه ، فكيف بمن جعل مـع الله إلهـاً آخر وعبد من لا يصلح للعبـادة ، والله تعالى لا يغفـر أن يشرك بـه ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء .

تنازع القائلين بوحدة الوجود

(**وقد غلط**) طائفة من أهل الكـلام فظنـوا أن الإله بمعنى الفـاعل ، وجعلوا الإلهيـة هي القدرة والـربوبيـة ، فـالإلـه هـو القـادر وهـو الـرب ، وجعلوا العبـاد مألوهين كما أنهم مربوبون . فالـذين يقولـون بوحـدة الوجـود متنازعـون في أمور ، لكن إمامهم ابن عربي يقول : الأعيان ثـابتة في العـدم ووجود الحق فـاض عليها . فلهذا قال : فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلهـاً ، فزعم أن المخلوقـات جعلت الرب إلهـاً لها حيث كانوا مألوهين ، ومعنى مألوهين عنده مـربوبـين ، وكونهم مـألوهـين حيث كـانت أعيـانهم ثـابتـة في العـدم ، وفي كـلامهم من هـذا وأمثـالـه مما فيـه تنقص بالربوبية ما لا يحصى ، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والتحقيق أن الله خـالق كـل شيء والمعـدوم ليس بشيء في الخـارج ، ولكن الله يعلم مـا يكون قبـل أن يكون ويكتبـه ، وقد يـذكره ويجـريـه فيكـون سببـاً في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج كـما قال تعـالى : ﴿ **إنما أمـره إذا أراد شيئاً أن يقـول له كن فيكون** ﴾[3] والله سبحانـه خالق الإنسـان ومعلمه فهـو الـذي خلق : ﴿ **خلق الإنسـان من علق** ﴾ وهو الأكـرم : ﴿ **الذي علم بـالقلم علم الإنسان مـا**

---

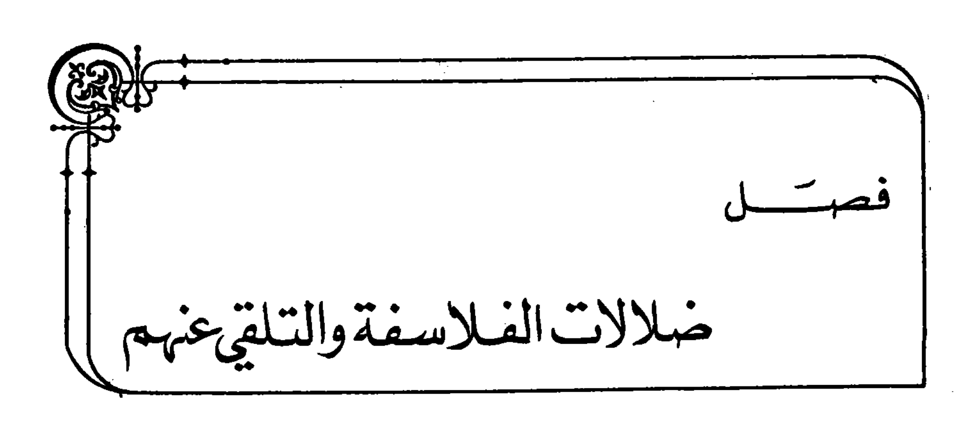
(١) سورة البقرة ١٢٤ . (٢) سورة هود ١١٤ . (٣) سورة يس ٨٢ .

لم يعلم﴾[1] ولو قدر أن الإله بمعنى الرب ، فهو الذي جعل الرب مربوباً ، فيكون على هذا هو الذي جعل المألوه مألوهاً ، والمربوب لم يجعله رباً بل ربوبيته صفة ، وهو الذي خلق المربوب وجعله مربوباً ، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها ، كان قد اتخذ الله رباً ولم يبغ رباً سوى الله ولم يتخذ رباً سواه كما قال تعالى : **﴿ قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء﴾**[2] وقال تعالى : **﴿ أفغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض﴾**[3] وقال: **﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أراباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾**[4] وهو أيضاً في نفسه هو الإله الحق لا إله غيره ، فإذا عبده الإنسان فقد وحده من لم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره قال تعالى : **﴿ فلا تجعل مع الله إلهاً آخر فتكون مع المعذبين ﴾**[5] وقال تعالى : **﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً ﴾**[6] وقال إبراهيم لأبيه آزر : **﴿ أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾**[7] فالمحبوب ليس بإله في نفسه لكون عابده اتخذه إلهاً وجعله إلهاً ، وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه ، بل يضره كما أن الجاهل إذا اتخذ إماماً ومفتياً وقاضياً كان ذلك باطلاً ، فإنه لا يصلح أن يؤم ولا يفتي ولا يقضي ، وغير الله لا يصلح أن يتخذ إلهاً يعبد ويدعي ، فإنه لا يخلق ولا يرزق ، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال ، وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعي أو يسمع ولكن لا يستجيب له ، فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء البتة وقد قال تعالى : **﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾**[8] فغير الله لا مالك لشيء ولا شريك ولا هو معاون للرب في شيء، بل قد يكون له شفاعة إذ

(1) سورة العلق ٤ ـ ٥ .
(2) سورة الأنعام ١٦٤ .
(3) سورة الأنعام ١٤ .
(4) سورة آل عمران ٨٠ .
(5) سورة الشعراء ٢١٣ .
(6) سورة الإسراء ٢٢ .
(7) سورة الأنعام ٧٤ .
(8) سورة سبأ ٢٢ ـ ٢٣ .

كـان من الملائكـة والأنبياء والصـالحين ، ولكن لا تنفـع الشفاعـة عنده إلا لمن أذن لـه ، فلا بـد أن يأذن للشـافع أن يشفـع ، وأن يأذن للمشفـوع له أن يشفـع له ، ومن دونه لا يملكون الشفاعة البتـة ، فلا يصلح من سـواه لأن يكون إلهـاً معبوداً ، كـما لا يصلح أن يكون خـاليففا رازقـاً ، لا إله إلا هـو وحده لا شـريك لـه ، لـه الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .





فصل

ضلالات الفلاسفة والتلقي عنهم

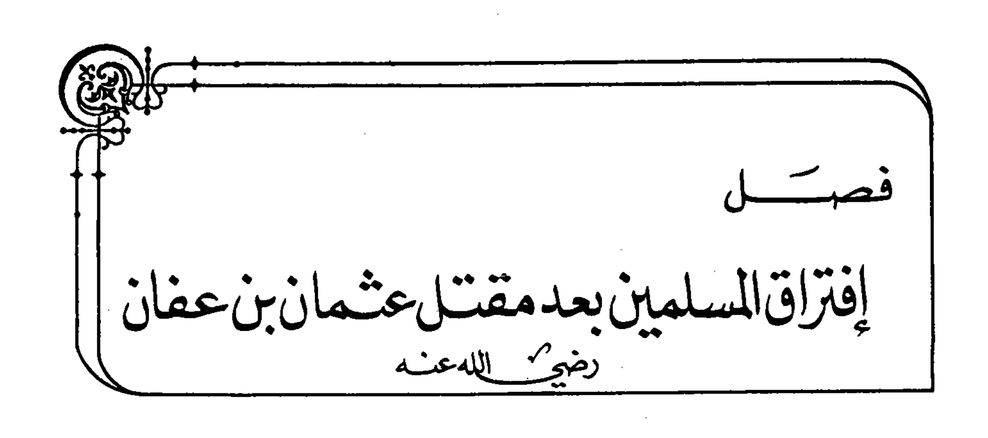
وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم : مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم ، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ، فإن الرسول بعث بالبينات والهدى بين الأدلة العقلية ، ويخبر الناس بالغيب الذي لا يمكنهم معرفته بعقولهم ، وهؤلاء المتفلسفة يقولون : إنه لم يفد الناس علماً بخبره ولا بدلالته ، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح به العامة فيعتقدوا في الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم ، وإن كان كذباً وباطلاً .

وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به لكن كذباً للمصلحة ، فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علماً ، وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا به .

والمتكلمون الذين يقولون إنهم لا يخبرون إلا بصدق ، ولكن يسلكون في العقليات غير طريقهم ، مبتدعون مع إقرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية ، فكيف بهؤلاء الملاحدة المغترين ، ولهذا يعتنون بالقرآن ولا تفسيره ، ولا بالحديث وكلام السلف وإن تعلموا من ذلك شيئاً فلأجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم يذكره لا لاعتقادهم موجبه في الباطن ، وهذا بخلاف طوائف المتكلمين ، فإنهم يعظمون القرآن في الجملة وتفسيره مع ما فيهم من البدع ، ولهذا لما استولى التتار على بغداد ، وكان الطوسي منجماً لهولاكو استولى على كتب

الناس الوقف والملك ، فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها ، وأخذ كتب الطب والنجوم والفلسفة والعربية ، فهذه هي الكتب المعظمة .

وكان بعض من أعرفه قارئاً خطيباً لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سخرية حتى يستخدم الجن ، وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام ، فكان يقول لبعض أصحابنا : يا فلان عن قليل يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي ، ثم يرضيه فيقول : والعربية أيضاً ، والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها ، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع ونحوهم من حطب النار .



أول التفرق والابتداع في الاسلام بعد مقتل سيدنا عثمان وافتراق المسلمين ، فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج وقالوا : لا حكم إلا لله ، وفارقوا جماعة المسلمين ، فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم ، والآخرون أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم فقتلوا ابن خباب . وقالوا : كلنا قتله : فقاتلهم علي وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه لكن خرجوا عن السنة والجماعة ، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن ، كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا فإن الرسول : أعلم بما أنزل الله عليه ، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالماً ، فلم ينفذوا لحكم النبي ولا لحكم الأئمة بعده ، بل قالوا إن عثمان وعلياً ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، فكفروا المسلمين بهذا وبغيره ، وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبني على مقدمتين باطلتين . إحداهما : أن هذا يخالف القرآن ، والثانية : أن من خالف القرآن يكفر ، ولو كان مخطئاً أو مذنباً معتقداً للوجوب والتحريم .

مغالاة الشيعة في الأئمة

وبإزائهم الشيعة غلواً في الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شيء ، وأوجبوا الرجوع إليهم في جميع ما جاء به الرسل ، فلا يعرجون لا على القرآن

ولا على السنة ، بل على قول من ظنوه معصوماً ، وانتهى الأمر إلى الائتمام بإمام معدوم لا حقيقة له فكانوا أضل من الخوارج ، فإن أولئك يرجعون إلى القرآن وهو حق وإن غلطوا فيه ، وهؤلاء لا يرجعون إلى شيء بل إلى معدوم لا حقيقة له ، ثم إنما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى ، فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، ولهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون فحديثهم من أصلح الحديث ، وحديث الشيعة من أكذب الحديث ، ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ، والشيعة تختار هذا لكنهم عاجزون ، والزيدية تفعل هذا ، والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لا نقتل إلا تحت راية إمام معصوم ، والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم ، ولهذا وصت الملاحدة مثل القرامطة الذين كانوا في البحرين وهم من أكفر الخلق ومثل قرامطة المغرب ومصر ، وهم كانوا يستترون بالتشيع ، أوصوا بأن يدخل على المسلمين من باب التشيع ، فإنهم يفتحون الباب لكل عدو للإسلام من المسركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث كما قد بسط هذا في مواضع .

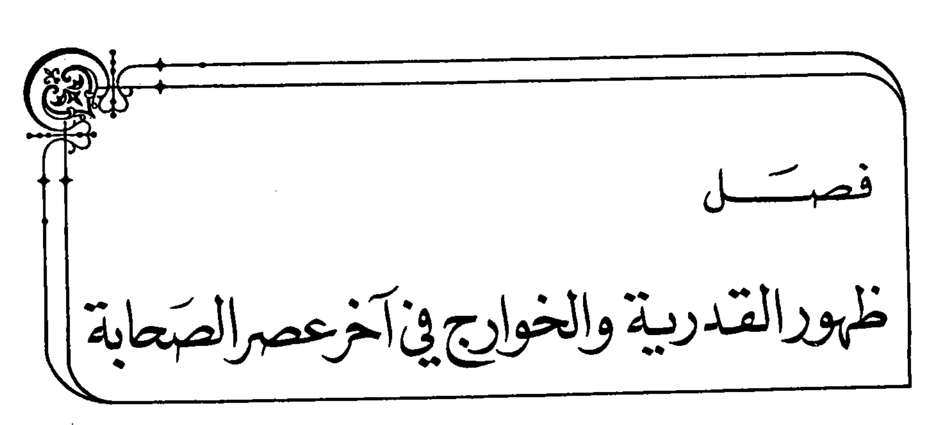
والمقصود أن النبي ﷺ قال : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله » فحض على كتاب الله ثم قال : « وعترتي أهل بيتي أذكركم الله ، في أهل بيتي ثلاثاً » فوصى المسلمين بهم لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون إليهم ، فانتحلت الخوارج كتاب الله وانتحلت الشيعة أهل البيت ، وكلاهما غير متبع لما انتحله ، فإن الخوارج خالفوا السنة التي أمر القرآن باتباعها وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ، ولهذا تأول سعد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض**﴾[1] وصاروا يتبعون المتشابه من القرآن ، فيتأولونه غير تأويله من غير معرفة منهم بمعناه ، ولا رسوخ في العلم ، ولا اتباع للسنة ، ولا

---

(١) سورة البقرة ٢٦ ـ ٢٧ .

مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن ، وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جداً قد بسطت في مواضع .





فصـــل

ظهور القدرية والخوارج في آخر عصر الصحابة

ثم حدث في آخر عصر الصحابة القدرية ، فكانت الخوارج تتكلم في حكم الله الشرعي ، أمره ونهييه وما يتبع ذلك من وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ومن يكون مؤمناً وكافراً ، وهي مسائل الأسماء والأحكام ، وسموا محكمة لخوضهم في التحكيم بالباطل .

وكان الرجل إذا قال لا حكم إلا الله . قالوا : هو محكم : أي خائض في حكم الله ، فخاض أولئك في شرع الله بالباطل ، وأما القدرية : فخاضوا في قدره بالباطل ، وأصل ضلالهم ظنهم أن البدر يناقض الشرع ، فصاروا حزبين : حزباً يعظمون الشرع والأمر والنهي والوعد والوعيد واتباع ما يحبه الله ويرضاه ، وهجر ما يبغضه وما يسخطه ، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ؛ كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ، ففرقوا بين الكتاب والسنة ، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين ، وفرقوا بين المسلمين ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل .

وكذلك القدرية . فصاروا حزبين : حزباً يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه أو ينفي بعضه ، وحزباً : يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ويقول : لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر الجميع

سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه وكذلك ما ذكر أنه يحبه وذكر أنه يبغضه ، لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئة يأمر بهذا وينهى عن مثله ، بجحدوا الفرق والفصل الذي بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام ، كما أن أولئك وإن أقروا بالفرق فأنكروا الجمع ، وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قدير .

ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء عليما ، وأنكروا أن يكون خالقاً لكل شيء، وأن يكون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنكروا أن يكون الله فعالاً لما يشاء ، وأثبتوا لغير الله الانفراد بالأحداث وشركاء ، خلقوا كخلقه كما فعلت المجوس ، واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونهيه إلا مع تعجيزه أو تجهيله ، وأنه لا يمكن أن يوصف بالاحسان والكرم إن لم يجعل عاجزاً وإلا لزم أن يكون بخيلاً ، كما أن القدرية المجبرة قالوا : لا يمكن أن يجعل عالماً قادراً إلا بتسفهه وتجويره .

فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيئته أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس في الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقاً ، وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ، ويقولون : ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا** ﴾[1] الآية . وهؤلاء منتهى توحيدهم ؛ توحيد المشركين وهو توحيد الربوبية ، فأما توحيد الإلهية المتضمن للأمر والنهي ، ولكون الله يحب ما أمر به ، ويبغض ما نهى عنه فهم ينكرونه ، ولهذا هم أكثر اتباعاً لأهوائهم ، وأكثر شركاً وتجويزاً من المعتزلة ، ومنتهى متكلميهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام ، وأن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، كما ذكر ذلك صاحب منازل السائرين .

عبادة الأصنام

وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازي صنف فيها مصنفاً وابن

(١) سورة الأنعام ١٤٨ .

عربي وابن سبعين وأمثالهما ، يصرحون بجواز عبادتها وبالإنكار على من أنكر ذلك ، وهم متناقضون في ذلك ، فالقدرية أصلهم أنه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته إذ لو كان قادراً لفعل عين ما فعل ، فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر . وقالوا : يثبت حكمته كما يثبت حكمه لأن نفي ذلك يوجب السفه والظلم وهو منزه عنه بخلاف ما لم يقدر عليه ، فإنه معذور إذا لم يفعله فلا يلام عليه .

وقال المجبرة : بل قدرته ثابتة بلا حكمة ، ولا يجوز أن يفعل لحكمة لأن ذلك إنما يكون لمن يحتاج إلى الفعل وهو منزه عن الحاجة ولا عدل ولا ظلم ، بل كل ما أمكن فعله فهو عدل ، وليس في الأفعال ما هو حسن ينبغي الأمر به ، وقبيح ينبغي النهي عنه ، ولا معروف ومنكر ، بل يجوز أن يأمر بكل شيء وينهى عن كل شيء .

ثم من حقق منهم أنكر الشرع بالكلية ، وأنكر النبوات مع أنه مضطر إلى أن يأمر بشيء وينهى عن شيء ، فإن هذا لازم لجميع الخلق لا يجدون عنه محيصاً ، لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره ، وينهي عما يضره ويضر غيره ، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر وينهي عما ينفع ، فيستحق عذاب الدنيا والآخرة ، وأما من كان منهم مقراً بالنبوة ، فأنكر الشرع في الباطن .

وقال العارف : لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، فصار منافقاً يظهر خلاف ما يبطن . ويقول : الشرع لأجل المارستان ، ولهذا يسمون باطنية كما سموا الملاحدة باطنة ، فإن كلاهما يبطن خلاف ما يظهر ببطون تعطيل ما جاء به الرسول من الأمر والنهي .

الجهمية أما مشركون أو منافقون

فمنتهى الجهمية المجبرة إما مشركون ظاهراً وباطناً ، وإما منافقون فيبطنون

الشرك ، ولهذا يظنون بالله ظن السوء ، وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه كما قال تعالى : **﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا﴾**[1] وهم يعقلون بقوله :**﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾**[2] وبأنه يفعل ما يشاء ، **ولذلك لما ظهر المشركون التتار وأهل الكتاب** ، كثر في عبادهم وعلمائهم ، من صار مع المشركين وأهل الكتاب ، وارتد عن الإسلام إما باطناً وظاهراً وإما باطناً . وقال : إنه مع الحقيقة ومع المشيئة الآلهية ، وصاروا يحتجون لمن هو معظم للرسل عما يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج عن الشريعة . موالاة المشركين وأهل الكتاب والدخول في دينهم ومجاهدة المسلمين معهم هو بأمر الرسول ، فتارة يأتيهم شياطينهم بما يخيلون لهم أنه مكتوب من نور ، وأن الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار لكون المسلمين قد عصوا .

ولما ظهر أن مع المشركين وأهل الكتاب خفراً لهم من الرجال المسلمين برجال الغيب ، وأن لهم خوارق يقتضي أنهم أولياء الله ، صار الناس من أهل العلم ثلاثة أحزاب :

حزب : يكذبون بوجود هؤلاء ولكن عاينهم الناس وثبت ذلك عمن عاينهم أو حدثه الثقاة بما رأوه هؤلاء إذ رأوهم أو تيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

وحزب : عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء .

وحزب : ما أمكنهم أن يجعلوا أولياء الله خارجاً عن دائرة الرسول . فقالوا : يكون الرسول هو ممد للطائفتين لهؤلاء وهؤلاء ، فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه ، والذين قبلهم يجوزون لاتباع دين غير دينه ، وطريق غير طريقه .

---

(١) سورة الفتح ٦.		(٢) سورة الأنبياء ٢٣ .

وكانت هذه الأقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكة ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء من أتباع الشياطين ، وأن رجال الغيب هم الجن وأن الذين مع الكفار شياطين ، وأن من وافقهم من الإنس فهو من جنسهم شيطان مع شياطين الإنس أعداء الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾[1] .

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأصله قول الجهمية الذين يسعون بين المخلوقات فلا يفرقون بين المحبوب والمسخوط ، ثم إنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها .

عقائد اليونسية

ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشفت أمور أخرى ، فظهر أن اليونسية كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار .

وحضر عندي بعض شيوخهم واعترف بالردة عن الإسلام وحدثني بفصول كثيرة . فقلت له : لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول فهي أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصموا ، وكان في بغداد بضعة عشر بغي ، فالجيش الكفار المشركون الذين جاءوا، كانوا شراً من هؤلاء فإن هؤلاء كن يزنين اختياراً ، فأخذ أولئك المشركون عشرات ألوف من حرائر المسلمين وسراريهم بغير اختيارهم وردوهم عن الإسلام إلى الكفر ، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام ودين النصارى وتعظيم الصليب حتى بقي المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب مع تضاعيف ما كان يفعل من المعاصي ، فهل يأمر محمد ﷺ بهذا ويرضى بهذا فتبين له وقال : لا والله .

وأخبرني عن ردة من ارتد من الشيوخ عن الإسلام لما كانت شياطين المشركين تكرههم على الردة في الباطن وتعذبهم إن لم يرتدوا .

---

(١) سورة الأنعام ١١٢ .

فقلت : كان هذا لضعف إيمانهم وتوحيدهم والمادة التي يشهدونها من جهة الرسول ، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين ، وهذا وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين ، بل إنهم رجال من رجال الغيب الإنس ، وكلهم الله بتصريف الأمر .

فبينت لهم أن رجال الغيب هم الجن كما قال تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً**﴾[1] ومن ظن أنهم إنس فمن جهله وغلطه ، فإن الإنس يؤنسون - أي يشهدون - ويرون إنما يحتجب الإنسي وأحياناً لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الإنس بخلاف الجن ، فإنهم كما قال الله : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾[2] .

قصة الشيخ محمد بن السكران

وكان غير هذا من المشايخ يذكرون **عن الشيخ محمد بن السكران** أن هولاكو ملك المشركين لما دخل بغداد ، رأى بان السكران شيخاً محلوق الرأس على صورة شيخ من مشايخ الدين والطريق . آخذاً بفرس هولاكو . قال : فلما رأيته أنكرت هذا واستعظمت أن يكون شيخ من شيوخ المسلمين يقود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين . فقلت : يا هذا أو كلمة نحو هذا ؟ فقال : تأمر بأمر . أو قال له : هل يفعل هذا بأمر أو فعلت هذا بأمر . فقالت : نعم بأمر فسكت ابن السكران وأقنعه هذا الجواب ، وكان هذا لقلة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . وظن أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من الله ، **وأن من قال حدثني قلبي عن ربي فإن الله هو يناجيه**، ومن قال : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت هو كذلك ، وهذا أضل من ادعى الاستغناء عن الأنبياء ، وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم .

---

(1) سورة الجن ٦ .

(2) سورة الأعراف ٢٧ .

وجواب هذا أن يقال له: بأمر من تأمر؟ فإن قال: بأمر الله. قيل: بأمر الله الذي بعث به رسوله وأنزل به القرآن أم بأمر وقع في قلبك. فإن قال بالأول ظهر كذبه، فإنه ليس فيما يأمر الله به رسوله أن يأتي بالكفار المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين وسبيهم وأخذ أموالهم لأجل ذنوب فعلوها، ويجعل الدار تعبد بها الأوثان ويضرب فيها بالنواقيس ويقتل قراء القرآن وأهل العلم بالشرع.

ويعظم النجسية علماء المشركين وقساوسة النصارى وأمثال ذلك، فإن هؤلاء أعظم عداوة لمحمد ﷺ وهو من جنس مشركي العرب الذين قاتلوه يوم أُحد، وأولئك عصاة من عصاة أُمته وإن كان فيهم منافقون كثيرون، فالمنافقون يبطنون نفاقهم وإن قال: بأمر وقع في قلبي. لم يكذب.

لكن يقال من أين لك أن هذا رحماني ولم لا يكون الشيطان هو الذي أمرك بهذا، وقد علمت أن ما يقع في قلوب المشركين وأهل الكتاب هو من الشيطان، فإن رجع إلى توحيد الربوبية وأن الجميع بمشيئته قيل له: فحينئذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب هو بالأمر ولا ريب أنه بالأمر الكوني القدري، فجميع الخلق داخلون تحته لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لا بأمر الرسول، فإنما يكون من جنس شياطين الإنس والجن، وهو مستوجب لعذاب الله في الدنيا والآخرة، وهو عابد لغير الله متبع لهواه، وهو ممن قال الله فيه: **﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾**(١) .

ومن قال فيهم الشيطان: **﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾**(٢) .

قال الله تعالى: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾**(٣) .

---

(١) سورة ص ٨٥. (٢) سورة ص ٨٢ ـ ٨٣. (٣) سورة الحجر ٤٢.

وقال تعالى: **﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾**[1] .

وقال تعالى: **﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء الذين لا يؤمنون. وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لاتعلمون﴾**[2]. فكيف تأمرك بالشرك والكفر وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين، وقتل الكفار للمسلمين هذا لا يأمر الله به، كما لا يأمر بالفحشاء فإن هذا من أفحش الفواحش إذا جعلت الفاحشة إسماً لكل ما يعظم قبحه، فكانت جميع القبائح السيئة داخلة في الفحشاء.

قصة الشيخ عثمان شيخ دير ناعس

وكان أيضاً بالشام بعض أكابر الشيوخ ببعلبك، **الشيخ عثمان شيخ دير ناعس** يأتيه خفير الفرنج ـ النصارى ـ راكباً أسداً ويخلو به ويناجيه ويقول: يا شيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم، فيعذره عثمان وأتباعه في ذلك ويرون أن الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل، كما عذر ابن السكران وأمثاله لخفراء المشركين التتار.

والجواب لهذا كالجواب لذلك، يقال له وكلك الله تعالى بهذا، أنزل على لسان نبيه، الدين أمر أن يوالي المسلمين، وأن لا يتخذ اليهود والنصارى أولياء بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت، هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم. فإن قال هذا ظهر كذبه، وإن قال بل هو أمر ألقي في قلبي لم يكذب. وقيل له: فهذا من أمر الشيطان لا من أمر الرحمن الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، ولكنه من الأمر الذي كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا: **﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾**[3]

ومن هؤلاء من يظن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل

---

(١) سورة النحل ٩٩. (٢) سورة الأعراف ٢٧ . (٣)سورة الأنعام ١٤٨ .

الكتاب هم أولياء الله، ولا يجب عليهم اتباع الرسول كالملائكة الموكلة ببني آدم المعقبات.

فقلت لشيخ كان من شيوخهم: محمد أرسل إلى الثقلين الإنس والجن، ولم يرسل إلى الملائكة، فكل إنسي أو جني خرج عن الإيمان به، فهو عدو لله لا ولي لله بخلاف الملائكة.

ثم يقال له: الملائكة لا يعاونون الكفار على المعاصي ولا على قتال المسلمين، وإنما يعاونوهم على ذلك الشياطين، ولكن الملائكة قد تكون موكلة بخلقهم ورزقهم وكتابة أعمالهم فإن ذلك ليس بمعصية، فهذا الجواب بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوجهين.

وقد ظهر أنهم من جنس الشياطين لا من جنس الملائكة، وكان هذا الشيخ هو وأبوه من خفراء الكفار، وكان والده يقال له محمد الخالدي نسبة إلى شيطان كان يقربه يقال له الشيخ خالد، وهم يقولون: إنه من الإنس من لأجال الغيب.

وحدثني الثقة عنه أنه كان يقول: الأنبياء ضيعوا الطريق. ولعمري لقد ضيعوا طريق الشياطين، شياطين الإنس والجن، وهؤلاء المشايخ الذين يحبون المسلمين، ولكن يوالون الشيوخ الذين يوالون المشركين الذين هم خفراء الكفار، ويظنون أنهم من أولياء الله اشتركوا هم وهم في أصل ضلالة وهو أنهم جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانية، ولم يفرقوا بين أولياء الرحمن كما قال تعالى: ﴿**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين**﴾[1].

فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذي أنزله وهو الكتاب والسنة، وعن الروح الذي أوحاه الله إلى نبيه الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من

---

(١) سورة الزخرف ٣٦.

عباده، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولم يفرقوا بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وبين خوارق السحرة والكهان، إذ هذا مذهب الجهمية المجبرة، وهؤلاء كلهم يشتركون في هذا المذهب، فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه بل يجعلون كل ما قدره وقضاه فإنه يحبه ويرضاه، فبقي جميع الأمور عندهم سواء، وإنما يتميز بنوع من الخوارق، فمن كان له خارق جعلوه من أولياء الله وخضعوا له إما اتباعاً له وإما موافقة له ومحبة، وإما أن يسلموا له حاله فلا يحبوه ولا يبغضوه، إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الإيمان ما يعرفون به المعروف، وينكرون به المنكر، في هذا الموضع.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وفي رواية لمسلم: **«من جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»**.

وميت الأحياء الذين لا يعرفون معروفاً، ! ولا ينكرون منكراً.

وفي حديث حذيفة الذي في صحيح مسلم. أن الفتنة تعرض على القلوب كعرض الصبر عوداً عوداً. فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء حتى تبقي القلوب على قلبين: قلب أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السماء والأرض، وقلب أسود مرباد لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه.

من زلَّات بعض الزهَّاد

فهؤلاء العباد الزهاد الذين عبدوا الله بآرائهم وذوقهم ووجدهم لا بالأمر والنهي، منتهاهم اتباع أهوائهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدي من الله، لا سيما إذا كانت حقيقتهم هي قول الجهمية المجبرة، فرأوا أن جميع الكائنات اشتركت في المشيئة، ولم يميز بعضها عن بعض، فإن الله يحب هذا ويرضاه،

وهذا يبغضه ويسخطه، فإن الله يحب المعروف ويبغض المنكر فإذا لم يفرقوا بين هذا وهذا، نكت في قلوبهم نكت سود فسود قلوبهم، فيكون المعروف ما يهوونه ويحبونه ويجدونه ويذوقونه، ويكون المنكر ما يهوون بغضه وتنفر عنه قلوبهم كالمشركين الذين كانوا عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع، كما تنفر الحمر المستنفرة التي تفر من الرماة ومن الأسد، ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا.

وكان الشيخ إبراهيم بن معصاد يقول لمن رآه من هؤلاء كاليونسية والأحمدية: يا خنازير يا أبناء الخنازير ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة، بل يريد كل منهم أن يؤتي صحفاً منشرة، كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول: ﴿**وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى تؤتي مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته**﴾[1] وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول النفاة، ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا في زمن السلف، بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم، فإنه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل، وهذا جماع الكفر، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الإيمان، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين وأهل الكتاب، وبسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا أن القدرية المجبرة من جنس المشركين، كما أن النافية من جنس المجوس، وأن المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشيئة في نفس الأمر، والنافية تنفي القدرة العامة والمشيئة التامة وتزعم أنها تثبت الحكمة والعدل، وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشيئة والقدرة ، كما قد بسط في مواضع

---

(١) سورة الأنعام ١٢٤.

وأولئك يتعلقون بقوله : ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾[1] والله يفعل ما يشاء .

وهذا ذكره الله إثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله ، بل بين سبحانه أن يفعل ما يشاء ، فلا أحد يمكنه أن عارضه إذا شاء شيئاً بل هو قادر على فعل ما يشاء بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ، ولا يمكنه أن يفعلها ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت فإن الله لا مكره له ولكن ليعزم المسألة » .

وذلك أنه إنما يقال : افعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرهاً ، يفيعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه ، والله تعالى لا مكره له فلا يفعل إلا ما يشاء .

فقوله تعالى : ﴿إن الله يفعل ما يشاء﴾[2] ﴿ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾[3] ونحو ذلك هو لإثبات قدرته على ما يشاء . وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون : إنه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء إلا الطاعة ، ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه وليس هو قادراً عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعاً ولا عاصياً .

فهذه الآيات التي يحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة ، كما أن الآيات التي يحتج بها النفاة التي تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة ، وأنه لم يخلق الخلق عبثاً ونحو ذلك ، يدل على فساد قول المجبرة وليس في هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين ، بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى ، وكلا القولين باطل ، وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند وغيره ، وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر وعن النبي ﷺ : « أنه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر ، وهذا يقول : ألم يقل الله كذا وهذا يقول أجلم يقل الله كذا فكأنما فقىء في وجهه حب الرمان فقال : أبهذا أمرتم أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب

---

(١) سورة الأنبياء ٢٣ . (٢) سورة الحج ١٨ . (٣) سورة المائدة ١٨ .

الله بعضه ببعض » ولهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض : إنا قد نهينا عن هذا .

فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره لم يؤمن بها ، بل آمن بما يحتج به ، صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض .

وهذا حال أهل الأهواء ، هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الأقوال ، فصاروا كما قال عن أهل الكتاب : ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغربنا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ .

فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ﴿**فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون**﴾[1] وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به . وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة كما قال ﷺ : « وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة ، يجعلون تلك هي الأصول العقلية كالقدرية المجبرة والنفاة ، فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام في الأصول ، وهو الذي يسمونه العقليات أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع ، فالمعتزلة يجعلون العقليات هي الخبريات والأمريات جميعاً فالواجبات الشرعية ، لكن يقولون أيضاً بأن الشرع أوجبها ولكن لهم فيها تخليط ليس هذا موضعه .

وكذلك ما ابتدعوه في الخبريات كإثبات حدوث العالم بطريقة الأعراض واستلزامها للأجسام ، وهم ينفون الصفات والقدر ويسمون ذلك التوحيد والعدل .

---

(١) سورة المؤمنون ٥٣ .

وجهم بن صفوان وأتباعه هم أعظم نفياً منهم ، فإنهم ينفون الأسماء مع الصفات ، وهم رؤوس المجبرة ، والأشعرية وافقتهم في الجبر ، لكن نازعوهم نزاعاً لطيفاً في إثبات الكسب والقدرية عليه ، وهم يرون أن هذه الأصول العقلية وهي العلم بما يجب للرب ويمتنع عليه وما يجوز عليه من الأفعال ، هي أعظم معلوم وأشرفها ، وأنهم يرزوا بها على الصحابة ، وأن النبي لم يعلمها الصحابة إما لكونه وكلها إلى استنباط الأمة ، وإما لكون الصحابة كانوا مشغولين عنها بالجهاد ، وإما لكونه قال لهم في ذلك ما لم يبلغوه ، ولم يشغلهم بالأدلة لاشتغالهم بالجهاد .

وهذه هي الأصول العقلية التي يعتمدون عليها هم ومن يوافقهم كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي ، وأبي الوليد الباجي تبعاً للقاضي أبي بكر وأمثاله ، وهو وأتباعه يناقضون عبد الجبار وأمثاله ، كما ناقض الأشعري وأمثاله أبا علي وأبا القاسم .

وكل الأصول العقلية التي ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة في العقل والشرع ، وإن كان كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها أعظم الدين ، ويقدمونها على الأصول الشرعية فإنهم في ذلك بمنزلة ما يعظمه العباد والزهاد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية ، ويفضلونها على العبادات الشرعية ، والعبادات الشرعية هي التي معهم من الإسلام .

وتلك كلها باطلة وإن كانت أعظم عندهم من العبادات حتى يقولوا : نهاية الصوفي ابتداء الفقيه ، ونهاية الفقيه ابتداء الموله ، وكذلك صاحب منازل السائرين يذكر في كل باب ثلاث درجات :

فالأولى : وهي أهونها عندهم ، توافق الشرع في الظاهر .

والثانية : قد توافق الشرع وقد لا توافق .

والثالثة : في الأغلب تخالف لا سيما في التوحيد والفناء والرجاء ونحو ذلك .

وهـذا الذي ابتـدعوه هـو أعظم عنـدهم مما وافقـوا فيه الـرسل ، وكثـير من العباد يفضل نوافله على أداء الفرائض ، وهذا كثير . والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيـدنا محمـد وآله وصحبـه وسلم تسليماً كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

فهرس